جوانب من الحياة الإدارية والثقافية في نيابة بيت المقدس إبان العهد المملوكي (648هـ-922هـ/1250م - 1516م)

Sides in The Administrative and Cultural life of Jerusalem Vicariate in the Mamluk Period

أ. شادي محمد اقطيش عواد

جامعة القدس المفتوحة –فرع يطا/فلسطين

Shadi Mohammad Iqtish Awwad

AlQuds Open University/Palestine

Abstract:

This study dealt with an important subject, namely, the case of Jerusalem in the Mamluk period. The study dealt with the implications of the declaration of the Jerusalem Vicariate. The study attempted to find out the date of the establishment of the Jerusalem Vicariate as well as the jobs of in the Jerusalem Vicariate. There were several types of jobs: military jobs, clerk jobs, and religious jobs.

The flourishing of science and education in the city of Jerusalem during the Mamluk period, and the cultural boom in the city of Jerusalem in the Mamluk era, the establishment of many scientific and literary institutions, which varied between schools, mosques, libraries, barges, gouges and angles.

الملخص:

تناولت هذه الدراسة موضوع هام وهو نيابة بيت المقدس في العهد المملوكي، حيث تطرقت الدراسة إلى إرهاصات الإعلان عن نيابة بيت المقدس وحاولت الدراسة الوقوف على تاريخ تأسيس نيابة بيت المقدس وكذلك الغرض من استحداث نيابة القدس وأهم الوظائف في نيابة بيت المقدس، حيث وُجد في مدينة القدس أيام السلاطين المماليك أنواع عدة من الوظائف وهي الوظائف العسكرية أو ما يسمى أرباب السيوف وأرباب الأقلام، والوظائف الدينية.

ونلاحظ ازدهار العلم والتعليم في مدينة القدس زمن المماليك، وتمثل الازدهار الثقافي في مدينة القدس في العهد المملوكي بتأسيس الكثير من المؤسسات العلمية والأدبية والتي تنوعت بين المدارس والمساجد والمكتبات والرباطات والخوانق والزوايا.

المقدمة:

أولى المماليك مدينة القدس عناية خاصة، واهتموا فيها اهتماماً كبيراً، وذلك لإيمانهم العميق بما لهذه المدينة من قدسية وأهمية كبيرة عند المسلمين، وظلوا يدافعون عن المدينة في ظل الأخطار الفرنجية المتواصلة والتي كانت تهدد السواحل الشامية والمصرية.

إن أمل الاستيلاء على مدينة القدس ظل متواصلاً عند الغرب الأوروبي، والحصول على الشرق العربي وخاصة مصر والشام والقدس بشكل خاص، وذلك من خلال التضييق على العرب والمسلمين من جميع النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية، وكانت هذه الإستراتيجية أوروبية مستمرة.

إرهاصات الإعلان عن نيابة بيت المقدس:

لم تنحسر الأطماع الفرنجية بهزيمتهم في عكا، وتطهير الساحل الشامي منهم، وتحرير جيوبهم الاستعمارية الاستيطانية هناك عام 1291م، بل استمروا في تحرشهم واعتداءاتهم وغزواتهم العسكرية بحراً، وتعرضهم للسفن الشامية والمصرية والاعتداء عليها وبالتالي نهبها. وعلاوة على ذلك، قاموا بحصار اقتصادي على دولة المماليك وذلك بتشجيع ومباركة البابوية في روما.

وبعد معركة عين جالوت 658هـ/1260م، التي انتصر فيها المماليك على التتار، أصبحت جميع البلاد الشامية تحت سيطرة المماليك. ونظرا لاتساع دولة المماليك، اتبع المماليك أسلوباً جديداً في تنظيماتهم الإدارية، فغيروا الممالك والأمارات الأيوبية إلى

نيابات، وأصبح في بلاد الشام ست نيابات وهي: نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة الكرك، ونيابة صفد. وقد جاء تشكيل هذه النيابات على فترات تبعاً للظروف التي كانت توجب إقامتها.

كانت مدينة القدس منذ بداية الحكم المملوكي في بلاد الشام، ملحقة بنيابة دمشق، حيث كان الحق لنواب دمشق في تعيين ولاة هذه المدينة، وتوظيف جميع أصحاب المناطق الإدارية فيها. حيث كانت القدس في بداية الحكم المملوكي ولاية صغيرة تتبع نيابة دمشق وكان يوجد في قلعتها نائب صغير يتم تعيينه من قبل نائب دمشق[1].

كان للسلاطين المماليك في القاهرة، مقر السلطة المركزية صلاحيات إدارية متجاوزين صلاحيات نواب دمشق من دون أن يشكل ذلك خرق أو تجاوز لشرعية الولاية التي كانوا قد منحوها لنوابهم. حيث كانوا يعزلون من يشاءون ويعينون من يشاءون في هذه الولاية، مثلها مثل غيرها من الولايات في نيابات الدولة[2].

ففي سنة 680هـ/1281م، عندما كان السلطان قلاوون الألفي قد وصل غزة حيث كان في طريقه إلى دمشق، قام بعزل والي القدس الأمير عماد الدين بن أبي القاسم ووضع مكانه الأمير نجم الدين السونجي، من دون أن يتم إعلام أو استشارة نائب دمشق الذي كان نطاق ولايته يمتد من العريش جنوباً إلى بلدة سَلَميَة شمالاً. وفي سنة 711هـ/1311م، تم إنشاء نيابة غزة، حيث قرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلغاء التبعية الإدارية لكل من القدس ونابلس والخليل والرملة واللد وقاقون لنيابة دمشق، وان يلحقها إدارياً إلى نيابة غزة التي عين عليها الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي نائباً. وعهد إليه مهمة توصيل الماء من الخليل إلى القدس والقيام ببعض الإنشاءات فيها[3].

كان تحويل القدس إلى نيابة ربما لما شعر به سلاطين المماليك عقب طردهم للصليبيين من بلاد الشام، من أن بيت المقدس كانت في تفكير كل رجل وامرأة في الغرب الأوروبي[4]. لقد كانت الأخطار الفرنجية تهدد السواحل الشامية والمصرية، منطلقة من القواعد الفرنجية في قبرص ورودوس والدول الأوروبية الأخرى، فقد بقي حلم الاستيلاء على القدس يراود الغرب الأوروبي، والسيطرة على الشرق وخصوصاً مصر وبلاد الشام، والتضييق على العرب من جميع النواحي وخصوصاً العسكرية والاقتصادية والسياسية[5].

تاريخ تأسيس نيابة بيت المقدس:

تختلف الروايات المتعلقة بتاريخ إنشاء نيابة القدس فيورد المؤرخ سهيل زكار رواية يقتبسها من مخطوطة (المقصد الرفيع المنشأ) وفحواها أن القدس أصبحت نيابة سنة 767هـ/1365م، عندما عين أمير برتبة طبلخاناه، وبالرغم من أن الرواية قد خلت من ذكر مصطلح نيابة إلا أن ذكر رتبة الإمرة للشخص الذي وضع على رأس المنصب الإداري لهذه الولاية فهو يكفِ على أن يكون دليلاً على تحويلها إلى نيابة مستقلة عن نيابة دمشق، حيث جرت العادة قبل هذا التاريخ أن يولي نواب دمشق رجلاً برتبة جندي، ليس له صفة الإمرة في الجيش المملوكي ولا حتى الرتبة الأدنى في سلم الإمرة[6].

ويورد المؤرخ الفلسطيني الأصل ابن حجر العسقلاني في حديثه عن سنة 777هـ/1375م وفيها استقر تمراز في نيابة القدس وهو أول من ولي نيابتها، وكانت قبل ذلك يكون فيها وال من جهة وال الولاية بدمشق[7].

وتعزز أقوال القلقشندي رواية ابن حجر العسقلاني، بخصوص التاريخ، وذلك بقوله: "نائب القدس الشريف، وهو من استحدث نيابته في الدولة الأشرفية، شعبان بن حسين، في سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وكانت قبل ذلك ولاية، وهو طبلخاناه في سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وأن العادة جرت أن يضاف إليها نظر الحرمين: حرم الخليل عليه السلام، وحرم القدس[8].

1 أبو الفدا، تقويم البلدان، حققه م.رينود، والبارون ماك كوكين دي سلان، باريس، المطبعة الملكية، 1907، ص142. انظر أيضاً: سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص32.
2 خليل عثامنة، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 2006، ص324.
3 خليل عثامنة، مرجع سابق، ص324. انظر أيضا: زيدان كفاني وآخرون، القدس عبر العصور، جامعة اليرموك، اربد، 2001، ص216.
4 رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، 1969، ص783.
5 زيدان كفافي وآخرون، مرجع سابق، ص215.
6 خليل عثامنة، مرجع سابق، ص325.
7 ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء الغمر، ج1، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، 1969-1971، ص107.
8 القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج7، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، 1338ه/1920م، ص170، ج12، ص105.

إن الوضوح التام في رواية كل من ابن حجر والقلقشندي لا يترك مجالاً للشك أن تحويل القدس إلى نيابة كان قد حدث زمن الأشرف شعبان وفي سنة 777هـ/1375م على وجه التحديد. ومن البديهي أن نؤيد أقوال كل من ابن حجر والقلقشندي لقربهما الزمن من تلك الأحداث، حيث نلاحظ أن القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) كان مهتماً بالنواحي الإدارية بالدرجة الأولى وكذلك فان أقوالهما كانت صريحة وواضحة عند التغيير.

واللافت للنظر في هذا المجال صمت المقريزي صاحب كتاب (السلوك)، وعدم ذكره هذا التاريخ الذي تم فيه استحداث نيابة القدس، وجاءت أول إشارة له إلى نيابة القدس متأخرة حوالي 20 سنة، حيث نلاحظ في تغطيته للأحداث في إبان السلطة الثانية للسلطان برقوق (1389 – 1398)، يتحدث عن أن السلطان برقوق قد أنعم في جمادى الأولى من سنة 796هـ/1393م على الأمير قُردم الحسيني نيابة القدس، بينما كان في غزة في طريقه إلى دمشق لمحاربة التتار بقيادة تيمور لنك الذي أخذ يضغط على الحدود الشرقية لدولة المماليك ونيته مهاجمة بلاد الشام.

ولا بد من الإشارة هنا إلى الخبر الذي أورده المقريزي قد ورد عند كل من ابن الصرفي وابن قاضي شهبة، بالرغم من أن ابن قاضي شهبة لا يذكر الأمير قُردم الحسيني، وكما يذكر أميراً آخر عينه برقوق لنيابة القدس هو الأمير شهاب الدين ابن البريدي[1].

إن هذه الرواية على أهميتها وتواترها في أكثر من مصدر، ينبغي لنا أن لا نعتبرها دليلاً على استحداث نيابة القدس في ذلك التاريخ أي سنة 796هـ/1394م، حيث أن الرواية لا تلغي صحة أي تاريخ لنشوء النيابة، وإنما ما تم ذكره يعتبر خطوة إدارية عادية صدرت عن السلاطين ضمن الصلاحيات الموكلة إليهم في تعيين الأمراء في النيابات المختلفة التابعة للدولة المملوكية.

ذكر المؤرخ الفلسطيني، ابن مدينة القدس، القاضي مجير الدين الحنبلي (860–928هـ/1455م–1521م) أن إنشاء نيابة القدس قد حدث قبل نهاية القرن الثامن الهجري بقليل، أو نحو سنة 800هـ/1397م، وذلك دون أن يحدد السنة التي تم فيها ذلك، فيقول: "وان كان في الزمن السالف تولية النيابة والنظر من نواب الشام. ولم يزل الأمر على ذلك نحو الثمانمائة، ثم عاد الأمر من السلطان بالديار المصرية. وهو مستمر إلى يومنا"[2].

الغرض من استحداث نيابة القدس:

ورث المماليك مهمة الجهاد ضد الصليبيين من الأيوبيين في بلاد الشام، وخاض سلاطين المماليك معارك طاحنة حتى استطاعوا دحر الصليبيين عن كل بلاد الشام وتحريرها، حيث كان آخرها مدينة عكا التي تم تحريرها عام 690هـ/1291م، عندما حررها الأشرف خليل بن قلاوون. ولم تتوقف محاولات الفرنج والأوروبيين بعد ذلك بمحاولة السيطرة على بلاد الشام وخاصة مدينة القدس، حيث كانوا ينطلقون أحياناً من قبرص وأحياناً من الدول الأوروبية الأخرى، وبعد ذلك زادت اتصالاتهم مع التتار، وحالوا إقامة حلف صليبي مغولي ضد المماليك، وذلك من اجل أن تبقى حدود الدولة المملوكية الشرقية في خطر مستمر، ومن اجل استعادة الفرنج للأراضي التي خسروها في بلاد الشام وفي مقدمتها مدينة القدس. وبالفعل أقيم تحالف بين التتار والغرب الأوروبي ومملكة أرمينيا الصغرى من اجل هذا الهدف.

حاول الغرب الأوروبي السيطرة على مدينة القدس في أكثر من محاولة، ومن هذه المحاولات ما يذكره المقريزي في حوادث سنة 730هـ/1329م من أن ملك فرنسا فيليب السادس(Philippe VI) اعتزم إرسال حملة فرنجية (صليبية) إلى الشام من أجل احتلال الأماكن المقدسة في فلسطين، وفي مقدمتها مدينة القدس، إلا أن ظروفاً قد حالت دون إرسال هذه الحملة، فلجأ إلى التهديد، حيث أرسل سفارة ضخمة من مائة وعشرين رجلاً، مرسلة من قبل ملك فرنسا فيليب السادس "في طلب القدس وبلاد الساحل، فأنكر السلطان عليهم، وعلى مرسلهم وأهانهم"[3].

ونلاحظ أن الملك الناصر محمد بن قلاوون، قد كان حاداً وعنيفاً في رده على الوفد، فقد أهان بعض أعضاء الوفد، وطردهم من القاهرة، وقام بالتضييق على التجار الفرنسيين في مصر والشام، مما اضطر ملك فرنسا إلى التراجع عن مطالبه وانشغل في حرب ضد انجلترا.

1 خليل عثامنة، مرجع سابق، ص326.
2 مجير الدين الحنبلي العليمي، "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، ج2، تحقيق محمود الكعابنة، ط1، مكتبة دنيس، عمان، 1420هـ/1999م، ص282.
3 المقريزي، السلوك، المقريزي،السلوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج2، ق2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936، ص319.

أما اعنف الغزوات الصليبية، فقد كانت الحملة التي شنها بيتر لوسينيان (Losignan) Peter، ملك قبرص عام 767هـ/1365م، على مدينة الإسكندرية، حيث اجتاحت قواته المدينة لمدة ثلاثة أيام ودمرت وقتلت، وأسرت الكثير من أهالي المدينة، وبعد أن تم لهم ما أرادوا غادروا الإسكندرية إلى موطنهم. ويصف لنا القلقشندي الوضع الخطير جداً في ذلك الوقت وذلك عند حديثه عن الرسالة التي بعثها السلطان أبو عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة، هذه الرسالة وجهها إلى الملك الأشرف شعبان بن حسين يقول فيها: "اتصل بنا ما رامت الروم من المكيدة التي كان دفاع الله من دونها سداً والملائكة جنداً، والعصمة سوراً، والروح الأمين مدداً منصوراً، وأنها استنفذت الوسع في احتشادها، حتى ضاقت اللجج من أعوادها، حتى غص كافر البحر بكفارها، يصبح بهم التأليب، ويذمرهم الصليب، وقد سول لهم الشيطان كياد ثغر الإسكندرية، شجا صدورهم، ومرمى آمال غرورهم، ومحو قديمهم، ومتعلل غريمهم، ليهتموا ثغر الإسلام بصدقها، ويقودوا خبائب الساحل في رمتها، ويرفعوا عن دينهم المعرة، ويتلقفوا في القدس كرة الكرة، ويقلصوا ما امتد من ظلال الإسلام، ويشيموا سيوف التغلب على الشام، ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم، وحجهم وفرارهم، وبيت ربهم الذين يقصدونه من كل فجع عميق"[1].

وقام الفرنج أيضا بحملة ضد طرابلس الشام عام 769هـ/1367م، حيث دخلوا المدينة، ونهبوا كثيراً من أسواقها، وقتلوا كثيراً من الناس على الميناء في مدينة طرابلس، وأخذوا معهم الكثير من الأسرى. ومن ناحية أخرى تسللت قوات فرنجية إلى القدس عبر طريق الحج، ولكنهم فشلوا في السيطرة على المدينة.

أدرك السلطان مما سبق الخطر المحدق ببلاد المسلمين وخاصة مدينة القدس، حيث أن الاعتداء على مدينة الإسكندرية كان من أشنع ما مر بالإسكندرية من حوادث ومنها اختلفت أحوالها، وانزعاج أهلها وقلت أموالهم وزالت نعمتهم"[2]. ونلاحظ أن ما حلّ بالإسكندرية قد دفعه إلى إعلانها نيابة، بعد أن كانت ولاية، وبالتالي أرى أن السبب نفسه هو الذي جعل السلطان الاشرف شعبان يرفع مكانة القدس إلى نيابة لأنه خاف أن يحدث في بيت المقدس ما كان قد حدث مع الإسكندرية.

وقد أدرك السلطان الاشرف شعبان بعد غزوة بطرس لوزجنان عِظم الخطر الذي يهدد مدينة القدس من الفرنج، لان غزوة بطرس كان الهدف منها الوصول إلى مدينة القدس عن طريق القاهرة، وهذه الإستراتيجية آمن بها الغرب الأوروبي، فسقوط القاهرة وإخراجها من المعركة يعني بالتالي سقوط القدس خاصة وبلاد الشام عامة.

ولكبر وعظم هذا الخطر على مدينة القدس، اهتم المماليك بالقدس وجعلوها نيابة مستقلة يكون التولية فيها من القاهرة، وعلى رأسها أمير برتبة كبيرة، ولديه قوات عسكرية يستطيع بها حماية القدس والمقدسات في هذه المدينة[3].

رأى بعض الباحثين والمؤرخين في تاريخ القدس أن استحداث نيابة القدس قد جاء استعداداً من جانب دولة المماليك لمواجهة التهديد العسكري الذي يمثله المغول خلال الربع الأخير من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على خلفية بوادر الاجتياح الكامل والشامل لبلاد الشام الذي كانوا يستعدون له. ولذلك ربط هؤلاء إنشاء النيابة بسلطنة برقوق الثانية حين كان متوجهاً إلى بلاد الشام من القاهرة، عندما أصبح خطراً داهماً[4]. وذهب فريق آخر من الباحثين والمؤرخين إلى أن استحداث نيابة بيت المقدس جاء بهدف إضعاف نواب دمشق في ضوء محاولاتهم الانفصالية عن الحكومة المركزية في القاهرة عاصمة المماليك.

لقد ذكر المقريزي في أحداث سنة 844هـ/1440م نيابات بلاد الشام وهي: نيابة دمشق، نيابة حلب، نيابة طرابلس، نيابة صفد، نيابة غزة، نيابة القدس، نيابة الكرك ونيابة مالطية. ونلاحظ من ذلك انه أصبح لفلسطين ثلاث نيابات وهي: نيابة صفد، نيابة القدس، نيابة غزة. وهذا يناقض ما ذهب إليه المستشرقان اليهوديان برنارد لويس وكوهين، من أن المماليك جعلوا في فلسطين نيابتين فقط وهما نيابة صفد ونيابة غزة، منطلقهم من ذلك أن القدس لم تلقَ الاهتمام الكافي في العصر الإسلامي، كبقية المدن الأخرى، بدليل أن مدينة القدس لم تكن عاصمة لدولة أو مركزاً لحكم[5].

1 القلقشندي، صبح الأعشا، ج7، ص107-111.
2 المقريزي، السلوك، ص108. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج10، القاهرة ص30.
3 زيدان كفافي وآخرون، مرجع سابق، ص518.
4 يوسف غوانمة، الادارة في فلسطين في العهد المملوكي، ص394-434.
5 زيدان كفافي وآخرون، مرجع سابق، ص218-219.

تمتعت مدينة القدس بمكانة سياسية وروحية عند المسلمين. حيث كان الاهتمام بها كبيراً على مر العصور الإسلامية وفي كل الحقب الإسلامية والتي كانت فيها مدينة القدس تحت سيطرة المسلمين، وخصوصاً في العهد المملوكي، حيث كان الاهتمام المملوكي كبيراً جداً في هذه المدينة، حيث جعلوا منها نيابة مستقلة. واهتموا فيها من جميع الجوانب العسكرية والاقتصادية والدينية والمدنية، وعين فيها الأمراء الكبار، وزارها معظم السلاطين وأصبحت المدينة مركز حكم مثلها مثل المدن الهامة في بلاد الشام كدمشق وحلب اللتان كانتا نيابتين من نيابات بلاد الشام[1].

أود هنا أن أضيف أن الاهتمام بمدينة القدس قد زاد عن الاهتمام بكل المدن المصرية والشامية في العهد المملوكي، حيث تتمتع مدينة القدس في الكثير من المواصفات والعناصر والمكانة الدينية التي لا تتوافر في المدن الأخرى. حيث بها المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة ومعراج الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وكنيسة القيامة، وهناك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي حثت على الاهتمام بمدينة القدس. وهذا يدحض ادعاءات اليهود من أن المسلمين لم يهتموا بمدينة القدس. فمدينة القدس كانت مركز حكم، وكانت نيابة القدس عبارة عن سلطنة مصغرة، ويوجد بها ما يوجد من الوظائف الهامة والتي كانت موجودة في القاهرة أو دمشق.

اهتم سلاطين المماليك باختيار الحكام والقضاة والنواب الذين يحظون باحترام ويحملون مؤهلات دينية وأخلاقية وحسن سيرة وسلوك. وحرص السلاطين المماليك على تغيير وإقصاء هؤلاء الحكام عندما يعجزون أو يمارسون ممارسات تعسفية اتجاه السكان في مدينة القدس. ويورد لنا مجير الدين الحنبلي أن الأمير خوشقدم نائب السلطنة في مدينة القدس انه قد حصل منه ظلم وتعسف للسكان في القدس حيث شكاه السكان للسلطان الملك الظاهر جقمق فعزله وطلب منه القدوم إلى مدينة القاهرة[2].

ونورد هنا قصة أخرى حيث رفع سكان القدس شكوى إلى السلطان الأشرف قايتباي ضد نائبه في مدينة القدس خضر بك، حيث كان ظالماً وقاتلاً ويسفك الدماء. الأمر الذي دفع السلطان إلى التحقيق في هذه الشكوى، وتأكد من صحتها ثم استحضره إليه، فضربه ثم فصله من منصبه. ومن الملفت للنظر أن الذي خلف خضر بك كان دقماق، وكان حكمه شبيهاً بسلفه، حيث ثار المقدسيون ضده مما حدا بالسلطان إلى إقالته[3].

الوظائف في نيابة بيت المقدس:

لقد وُجد في مدينة القدس أيام السلاطين المماليك أنواع عدة من الوظائف وهي الوظائف العسكرية أو ما يسمى أرباب السيوف وأرباب الأقلام، والوظائف الدينية.

أولاً: أرباب السيوف:

1. الوالي أو النائب:

أصبحت مدينة القدس نيابة عام 777هـ/1375م عندما رفعها الملك الأشرف شعبان بن حسين إلى هذه المرتبة، فأصبح يطلق على الوالي لقب نائب[4].

وكان النائب يمثل السلطان وينوب عنه في حكم مدينة القدس، وتنظيم أمور الدين الإسلامي والعمل على رفع كلمة الدين، وجعل الرعية تحب السلطان، وحماية المدينة، والمحافظة على أمان أهل الذمة ما داموا يدفعون الجزية ولا يحاولون التمرد على الدولة، وتعيين النواب الصغار على القلاع والمدن الصغيرة[5]. وكذلك فقد كان من مهام النائب مهمة نيابة مدينة الخليل والتي تتبع إدارياً إلى مدينة القدس، ويضاف إلى ذلك مهمة الاهتمام بالحرمين الشريفين في مدينتي الخليل والقدس[6]. ومن مهامه أيضاً الإشراف على شؤون الجيش وبيت المال ونيابة مدينة الرملة بالإضافة إلى القدس والخليل. فكان يقيم في دار النيابة والتي تغيرت إلى أكثر من مكان خلال الحكم المملوكي.

---

1 المرجع نفسه، ص219.
2 الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص611.
3 عارف العارف، تاريخ القدس، ص90.
4 الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص604-605). انظر أيضاً: القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص229-232.
5 القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص229-232.
6 الحنبلي، الأنس الجليل، ج1، ص608.

2. والي أو نائب القلعة:

تأتي هذه الوظيفة من حيث الأهمية بعد نائب السلطنة ومن صلاحيات ومهام هذه الوظيفة أن يحافظ صاحبها على حفظ وحماية القلعة وتفقد أسوارها وما تهدم منها، وان يعمل على تفقد عساكرها من الرجال وتخزين مختلف أنواع الأسلحة، والمحافظة على أمنها والدفاع عنها أمام الأعداء، وان يتقي الله في كل الظروف[1].

3. والي المدينة:

يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة، ومن واجبات صاحب هذه الوظيفة الإشراف العام على شؤون مدينة القدس، والمحافظة على أرواح الناس وأموالهم وممتلكاتهم، وتعقب الفاسدين ومعاقبة الخارجين على القانون، ومن يُلحقون الأذى بالأخلاق العامة، وكان يقوم بمساعدته مجموعة من الحرس ورجال الشرطة[2].

4. الحاجب:

كانت مهمة صاحب هذه الوظيفة الفصل في المنازعات بين الأمراء والجند[3]. ومن اختصاصاته كذلك فض المنازعات بين الناس، والنظر في القضايا التي تختص بأصحاب الجرائم، وغيرها من الجرائم التي ترفع إلى أصحاب الشرطة[4].

5. المحتسب:

ومهمته النظر في شكاوي الناس وتذمرهم والتي كانت ترفع إلى السلطان، حيث ترسل الدول بين الفينة والأخرى مفتشين ويسمى المفتش دوادار، وكان يطلق على كبير المفتشين الدوادار الكبير، وهو بمثابة أمين السر العام، وكذلك كان كل نائب سلطنة في مقر عمله دواداراً أي مفتشاً وهو بمثابة أمين السر الخاص[5].

ثانياً: أرباب الأقلام:

1. المحتسب:

كانت صلاحيات المحتسب واسعة جداً أيام المماليك حيث من اختصاصاته حماية الشعب من الظلم والغش ومنعه ومنع الاحتكار والتأكد من توفر جميع السلع الغذائية، ومباغتة الأسواق وفحص نظافتها، وكذلك حماية المتسوقين والتأكد من نظافة المساجد وحسن خدمتها واستخدامها، والاطلاع على المدارس والتأكد من عدم ضرب المعلمين للتلاميذ في هذه المدارس. ومن اختصاصه كذلك إشرافه على الأطباء والصيادلة والكحالين وأرباب الحرف[6]. ومن مهامه أيضاً الإشراف على عملية سك النقود من الذهب والفضة وموارد المياه في المدينة.

2. وكيل بيت المال:

وهي وظيفة مهمة وعظيمة الشأن ورفيعة القدر، ومهمتها المسؤولية عن مبيعات ومشتريات بيت المال من أراضي وغيرها، وكتابة العقود في ذلك ولا يتولاها إلا أصحاب القلم والدين، ومجلسه يكون بدار العدل وأحياناً أخرى يكون دون المحتسب، وأحيانا أخرى بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه[7].

وقد كان يقوم بمساعدة وكيل بيت المال بعض الموظفين الآخرين الذين ينظمون الحسابات والدَّين ويتولون قبض المال وصرفه، وكذلك الموظفين الذين يقومون بعملية الأرشفة للوثائق[8].

3. نقابة الأشراف:

تتلخص مهمة نقيب الأشراف في الإشراف على طبقة الأشراف والذين يرجع نسبهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك مهمة النقيب رعاية طبقة الأشراف والاهتمام في مصالحهم الاقتصادية.

1 القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص325-326.
2 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص206.
3 المرجع السابق، ص19.
4 العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص220.
5 المرجع نفسه.
6 القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص60-61.
7 القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص12.
8 القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص466.

ويصف القلقشندي الوظيفة قائلاً "وهي وظيفةٌ شريفة، ومرتبةٌ نفيسة، موضوعها التحدث على ولد علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهم المراد بالأشراف، في الفحص عن أنسابهم والتحدث في أقاربهم والأخذ على يدي المتعدي منهم ونحو ذلك، وكان يعبر عنها في زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبيين"[1].

4. ناظر كنيسة القيامة:

وهي وظيفة مهمة صاحبها عد الحجاج عند دخولهم إلى كنيسة القيامة وعند الخروج منها، وكان لا بد من صاحبها أن يتقن اللغات الأجنبية وعلى الأقل لغة أجنبية واحدة وذلك حتى يتم التفاهم مع الحجاج الأجانب الذين يزورون كنيسة القيامة. وكان نائب مدينة بيت المقدس من يعيّن صاحب هذه الوظيفة[2].

الوظائف الدينية:

1. القضاء:

وظيفة قاضي القضاة في العهد المملوكي كانت تمثل رأس الهيئة القضائية في ذلك العهد، كانت عملية القضاء تسير على المذهب الشافعي، وأحياناً كان يوكل إلى القاضي منصب ناظر الحرمين الشريفين. ومن ناحية أخرى، فقد استحدثت بعض المناصب القضائية على المذاهب الحنفية والحنبلية والمالكية[3].

أما القضاء بين الطوائف المسيحية المختلفة والتي كانت تعيش في القدس فكان بأيدي هذه الطوائف، إلا عندما يكون هناك خلاف بين الطوائف نفسها، فيتم اللجوء إلى القاضي المسلم في المدينة، وهناك شهادات تثبت ذلك في المحكمة الشرعية بالقدس[4].

وعندما تكون الخلافات بين المسلمين والمسيحيين، فيتم حل الإشكالات على أيدي القضاة المسلمين، ولم يكن ينحاز القضاة المسلمين للمسلمين بل يقضون بما هو صحيح[5].

أما اليهود في مدينة القدس في العهد المملوكي فقد كان لديهم قضاة يتولون حل ما يحدث من إشكالات بين اليهود أنفسهم، وتشير المصادر اليهودية أنهم قد تمتعوا بالتسامح والعدل في ظل الحكم المملوكي لمدينة القدس.

2. ناظر الحرمين الشريفين (ناظر القدس والخليل):

كان صاحب هذه الوظيفة مسئولاً عن المسجد الأقصى في القدس والحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل، وغالباً ما كانت هذه الوظيفة تُناط بنائب القدس[6]. وتتلخص مهامه في توفير كل ما يحتاج إليه المسجدين من مستلزمات وموظفين ورواتب الموظفين فيهما[7].

3. خطيب المسجد الأقصى:

ومهمة صاحب هذه الوظيفة إلقاء الخطب الدينية في المسجد الأقصى أيام الجمع والأعياد.

4. مشيخة المدرسة الصلاحية:

تعتبر هذه الوظيفة من الوظائف الدينية المهمة في مدينة القدس في العهد المملوكي. وكانت مهمة صاحب هذه الوظيفة الإشراف على المدرسين والطلاب والخدم وغيرهم وتوفير المستلزمات الضرورية للمدرسة الصلاحية من ملابس وطعام وتجهيزات. ونظراً لأهمية هذه الوظيفة فكان يشترط في صاحبها أن يكون من ابرز علماء العصر ويتم تعيينه من قبل السلطان في القاهرة.

5. مشيخة الخانقاة الصلاحية:

تعتبر هذه الوظيفة من الوظائف الدينية الهامة في مدينة القدس في العهد المملوكي، ويتم تعيين صاحب هذه الوظيفة من السلطان في القاهرة.

---

1 القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 37.
2 القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص7.
3 مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص87. انظر أيضاً: رشاد الإمام، مدينة القدس، ص103. انظر أيضاً: غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص39.
4 عارف العارف، تاريخ القدس، ص268-269.
5 احمد دراج، المماليك والفرنج، ص63.
6 المقريزي، السلوك، ج4، ق1، ص81.
7 الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص275-279. انظر ايضاً: المقريزي، السلوك، ج4، ق1، ص81.

ومن الجدير ذكره أن هذه الخانقاة تعتبر مكاناً لرجال التسوق والمجاورين علماً انه أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية بعد فتحه للمدينة عام 585هـ/1189م.

6. جيش نيابة بيت المقدس:

خصص المماليك جيشاً لنيابة بيت المقدس أسوةً بالنيابات الأخرى. وتألف جيش نيابة القدس من الفرسان والرجالة ورجال القبائل المستوطنة في النيابة والولايات التابعة لها، علماً بأنه جيش إقطاعي، ولذلك تم تخصيص ناظر له يتولى الأشراف على اقطاعات الأمراء والجند وترتيب أمورها، ومراسلة السلطان عن الاقطاعات التي يموت مالكوها[1].

وشارك جيش نيابة بيت المقدس في قمع الكثير من الفتن وردع المتمردين في مدينة القدس، وتم تكليف مهمة قمع المتمردين أبناء الولايات المملوكية المجاورة لنيابة القدس وكذلك فقد خاض جيش بيت المقدس في حروب المماليك ضد العثمانيين[2].

ومن الجدير ذكره انه كان هناك مزيداً من الوظائف الدينية الأخرى في مدينة القدس زمن المماليك مثل أئمة المساجد والمؤذنون ووظيفة الموقت الذي يحدد مواعيد الصلاة بدقة ووظيفة المقرئ وهو الذي يقوم بقراءة القران في المساجد المختلفة في مدينة القدس.

الحياة الثقافية في نيابة بيت المقدس:

اهتمام السلاطين المماليك بالتعليم في مدينة القدس

ازدهر العلم والتعليم في مدينة القدس زمن المماليك، فماثل التألق الديني والثقافي والفكري جانب وجهها الديني، وتمثل الازدهار الثقافي في مدينة القدس في العهد الأيوبي بتأسيس الكثير من المؤسسات العلمية والأدبية والتي تنوعت بين المدارس والمساجد والمكتبات والرباطات والخوانق والزوايا.

تجسد النشاط الفكري في تدريس العلوم الشرعية والعلوم العقلية واللغة العربية والتاريخ والعلوم العملية. وتمثل العصر المملوكي في مدينة القدس بظهور عدد كبير من المفكرين والعلماء والأدباء الذين كتبوا مصنفات في مختلف العلوم والفنون حيث رفدوا المكتبة العربية بعشرات المصادر في علوم عديدة. وتجسدت كذلك الفعاليات الفكرية في كثير من المجالس العلمية والأدبية التي ظهرت في مدينة القدس واشتهرت فيها المناظرات العلمية والأدبية وخاصة في مواضيع الحديث والتفسير والأدب والشعر.

إن انتعاش الحياة الثقافية في مدينة القدس يعود إلى الدور الهام الذي قام به سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك من دعم العلم والتعليم، انطلاقاً من اهتمامهم ورعايتهم ومحافظتهم على المسجد الأقصى والصخرة الشريفة، حيث قام الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والناصر محمد، والناصر حسن بن محمد، والملك الأشرف شعبان والملك الأشرف اينال، والملك الظاهر خوشقدم بترميم وتجديد معالم المسجد الأقصى من أبواب وأروقة وبناء، ومن ثم قيام هؤلاء السلاطين بإنشاء المدارس، ودور القران والحديث، وقد تم نسب هذه المدارس في معظم الأحيان إلى مؤسسيها، وكذلك امتد اهتمامهم إلى المعالم الإسلامية الأخرى من حيث الترميم والصيانة والتجديد، وقد أنفق السلاطين المماليك على المرافق العلمية والدينية الكثير، وشجعوا ودعموا الحركة الثقافية، وأكرموا العلماء والشيوخ وقربوهم إليهم، ومن السلاطين المماليك على سبيل المثال كتبغا المنصوري، والناصر محمد بن قلاوون، والناصر حسن، والأشرف شعبان، والملك الظاهر برقوق، والملك المؤيد شيخ المحمودي وغيرهم[3].

ومن النقاط التي دعمت الحركة الثقافية في العهد المملوكي في مدينة القدس هو إسهام القضاة والعلماء في تفعيل الحركة العلمية من خلال تأسيس الرباطات والزوايا والخوانق، وهي مؤسسات دينية وفكرية واجتماعية أدت دور فعال وهام في مختلف العلوم، كما كانت مراكز إعداد للجهاد، إضافة إلى دورها الديني والعلمي والاجتماعي والسياسي....، ولقد اجتمع في هذه المرافق الثقافية أفاضل العلماء وأكابر الشيوخ، وجهابذة القضاة من مدينة القدس نفسها، ومن الوافدين إليها من أرجاء العالم الإسلامي. ولم يكتفِ هؤلاء بالتعليم والتوجيه والإعداد، بل أن كثيرين منهم اشتغلوا بالتعليم تطوعاً، وأنفقوا عليه وعلى المتعلمين من أموالهم الخاصة وقد

1 غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص48-49.

2 الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص342-345. انظر: غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص49-53. انظر ايضاً: محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، ص192.

3محمد مروان مراد، ازدهار الحركة الفكرية في القدس في عهد المماليك، مجلة التراث العربي، سوريا، مجلد 29، ع113، آذار 2009، ص145.

وجد الوافدون إلى مدينة القدس للدراسة والتعبد في المدارس والزوايا والخانات مأوى يرجعون إليهم وينفقون عليهم بما فيه من أوقاف واسعة من القرى والبساتين والدور[1].

ازداد حرص سلاطين المماليك وكثر اهتمامهم بمدينة القدس حتى أصبحت في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد مدينة زاهرة عامرة تتفوق على كثير من المدن الأوروبية[2]. وكان اهتمام سلاطين المماليك بمدينة القدس نابعاً من رد الفعل لما أحدثته الحروب الصليبية بالقدس والشام وكان أيضاً نتيجةً للبواعث الدينية التي كانت معلنة في ذلك العهد[3]. وقد نتج عن البواعث الدينية والغيرة الإسلامية على مدينة القدس ومقدساتها أن عمل سلاطين المماليك على تأكيد الشخصية الإسلامية للمدينة بالاهتمام بالعمارة فيها فقاموا بترميم المقدسات الإسلامية وتجديدها وخاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى، والعناية الكبيرة بهما[4].

أكثر هؤلاء السلاطين وأمراؤهم وأفاضل الناس وأثرياؤهم حتى السيدات من تأسيس المؤسسات الدينية والتعليمية وتنافسوا في ذلك. كما ازداد رحيل العلماء والفقهاء والمحدثين في شتى الأمصار الإسلامية إلى هذه المدينة المقدسة لزيارتها أو لسكنها والمجاورة لمسجدها المبارك والأخذ عن علمائها أو للاشتغال بالتعليم والتدريب، وتولي الوظائف الدينية وغيرها فيها، مما أدى إلى نهضة علمية كبيرة في هذه المدينة والى ازدهار الحركة العلمية بعد أن ازداد عدد المؤسسات العلمية والتعليمية والدينية زيادة كبيرة[5].

لعب علماء بيت المقدس دوراً هاماً وبارزاً في الحياة العامة في عصر سلاطين المماليك، حيث كانت لهم مكانة مرموقة في مجتمع غلبت عليه الصبغة الدينية ولم تكن تلك المكانة بسبب نفوذهم المباشر على الرأي العام وتقديره لهم باعتبارهم علماء وأئمة المسلمين وحماة العقيدة فحسب، بل نتيجة احتكاكهم المباشر بكافة الطبقات الاجتماعية واختلاطهم بهم من تجار وأصحاب حرف، فضلا عن اتصالهم بالطبقة الحاكمة من المماليك، حيث حرصت الطبقة الحاكمة على مصاهرة هؤلاء العلماء كي يكتسبوا مكانة اجتماعية نظرا لأنهم غرباء عن المجتمع، وبالتالي قامت بتشجيع العلماء الذين يعملون في بعض هذه المؤسسات التعليمية.

ورث سلاطين المماليك التوجه الإسلامي الذي وضع صلاح الدين الأيوبي أساسه الأول وعلى الرغم من أن كثيراً من جهود السلاطين المؤسسين الأولين كان منصباً على قضايا تحرير بلاد الشام من قبضة الصليبيين، فإنهم لم يدخروا جهداً في ترسيخ الهوية العربية الإسلامية في فلسطين عامة والقدس خاصة. فأكثروا من إنشاء المؤسسات العلمية والثقافية والمنشآت التعليمية الإسلامية في مدينة القدس لما لها من أهمية عند سلاطين المماليك. فكانت السياسة العلمية عندهم تسير جنباً إلى جنب مع جهود التحرير كما تبين من المنجزات المميزة التي بذلها الرعيل الأول من السلاطين، كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون الألفي وابنه الأشرف خليل، ثم من بعدهم محمد بن قلاوون[6].

ومما يميز النهضة الثقافية في هذا العهد أنها لم تكن مقصورة على السلاطين فحسب، بل ساهم فيها أيضاً نواب السلاطين في فلسطين وبلاد الشام. ويجب أن لا نغفل في هذا السياق عن الدور الذي أداه الأمراء المماليك وبعض الأعيان من كبار المحسنين والتجار في تشجيع التعليم والعلماء وإنشاء المؤسسات والمشاريع الخيرية الثقافية والتعليمية، كالمدارس والزوايا والأسبلة وغيرها من المرافق التي تعود بالنفع على جمهور المواطنين[7].

كانت تتمحور المشاريع حول توفير الخدمات الحياتية لأهل مدينة القدس وخصوصاً حول المسجد الأقصى والمدارس التي حوله، حيث قام السلاطين بتحسين الأوضاع المعيشية لمن يعمل في التعليم والثقافة خاصة في أكلهم وشربهم وصحتهم وأبدانهم ولباسهم وتعليمهم، وأسست المدارس للصغار على شكل كتاتيب في الأحياء والحارات، وأقيمت المدارس للدراسات المتقدمة للكبار

1المرجع السابق، ص146.

2ليندا نورثروب،الحياة في القدس في عهد المماليك كما تصورها وثائق الحرم الشريف، بحث ضمن كتاب (الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى)، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1994، ص439.

3المرجع السابق، ص458.

4فؤاد حسنين علي، فلسطين عربية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973، ص159-160.

5علي منصور نصر شهاب، الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري (في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر، حوليات الاداب والعلوم الاجتماعية،الكويت الحولية 22، الرسالة 169، 2001، ص14.

6خليل عثامنة، فلسطين، ص401.

7المرجع السابق، ص401-402.

والبالغين لتدرس فيها العلوم الدينية واللغوية والفقهية. ولتسهيل سفر الناس وضمان تنقلاتهم بنيت الجسور والقناطر والخانات، وأنشأت الزوايا للمتصوفة يمارسون فيها رياضتهم الروحية تقرباً إلى الله، وبُنيت كذلك الجوامع تسهيلاً لأداء الفرائض الدينية[1].

لاحظنا أن الدراسات المعاصرة التي تناولت الحياة الثقافية في العهد المملوكي أشادت بالدور الرسمي المملوكي في دعم الحركة العلمية والعلماء على اعتبار أنهم شجعوا ورعوا العلم والتعليم والعلماء لأسباب عدة منها: استكمالهم للسياسة الأيوبية التي رغبت في القضاء على المذهب الشيعي في مصر والشام، ومنها أيضاً اهتمام السلاطين المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم، فضلاً عن الاهتمام بمقدسات المسلمين ورعايتها، وهنا يجدر التساؤل عن علاقة ذلك بتشجيعهم العلم، فإذا كان المماليك ممن جرحت أصولهم، ونظر إليهم على أنهم مغتصبون للحكم، فالمفروض أن يسعى المماليك أنفسهم جاهدين لتلقي العلم لتعويض هذا النقص الذي يشعرون به.

ويجب أن نلاحظ ونحن نتحدث عن الحياة الثقافية، أن المماليك قد شجعوا العلماء على التوجه نحو علوم محددة فقط وهي العلوم الدينية، في حين لم يشجع المماليك العلوم العقلية والفلسفة والمنطق، حتى لا تثير هذه العلوم الانتباه إليهم وإلى مساوئهم، ومما يقومون به في المجتمع من استئثار بالسلطة، وإلى ما يلعبونه من دور في تخريب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة في عصر التراجع عصر دولة الجراكسة، لهذا السبب لم يشجعوا العلوم التي من شأنها أن تدفع العقل إلى الحرية الفكرية والتساؤل والنقد، وتم توجيه الاهتمام إلى مجال العلوم الدينية، وبولغ في إظهار وتشجيع مبدأ الزهد في الحياة وجاهها وسلطانها، وترك نعيمها الزائل للتمتع بالحياة الآخرة ذات النعيم المقيم والدائم، وهو ما يعزز بالتالي توجه المماليك لإبقاء كل شيء في المجتمع على حاله ليستمروا فيما هم فيه من سلطة وجاه ونفوذ[2].

لذلك يجدر بنا ونحن ندرس الحياة الثقافية في العهد المملوكي إلى التنبه إلى هذه الأمور، حتى ندرس هذا الموضوع في إطاره السليم والصحيح.

أسباب انتعاش الحياة الثقافية:

تكاتفت عوامل الأمن والاستقرار والرخاء والثراء في بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك ليظهر أثرها في كثير من المنشآت التعليمية والخيرية والاجتماعية، وكان للمدارس حظ كبير في هذه الحركة، إذ شيد سلاطين وأمراء المماليك منها الكثير في القدس، بل إن مجير الدين الحنبلي مؤرخ القدس وهو معاصر لتلك الحقبة قد عدد لنا أكثر من أربعين مدرسة في بيت المقدس، وأكثر من عشرين زاوية، فضلاً عن مكاتب الأطفال أي الكتاتيب والمساجد[3].

وتشير بعض المراجع إلى كثرة المشاهد التي قد اتخذت كمؤسسات تعليمية، حيث رتب بها منشئوها المدرسين والطلبة. ولنا أن نتصور ضخامة هذا العدد من المنشآت التعليمية بالنسبة لمدينة صغيرة كمدينة القدس، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى اتساع دائرة النشاط العلمي فيها.

حرص الأمراء والسلاطين المماليك على أن يظهروا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية. وقد وجدت هذه المؤسسات التعليمية في نظام الوقف خير دعامة تشد أزرها وتمكنها من البقاء والاستمرار في أداء رسالتها. ربما تكون هذه الأوقاف أرضاً زراعية أو عقارات أو أسواق وحوانيت وحمامات وخانات تدر إيراداً ثابتاً، ينفق منها على صيانتها ودفع رواتب العاملين فيها، ومخصصات النازلين فيها.

لا شك أن الازدهار الثقافي في مدينة القدس لم يأت من فراغ. فقد كان اهتمام سلاطين المماليك بها كبيراً، ويعود اهتمام هؤلاء السلاطين بالقدس إلى وضع هذه المدينة الديني والسياسي، فهي أولى القبلتين، ومسجدها هو ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وإليها كان مسرى النبي عليه الصلاة والسلام، ومن فوق صخرتها كان معراجه إلى السماوات العلا. كما أنها كانت ولا تزال مطمعاً للقوى الأجنبية، وحتى بعد استخلاصها من الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي في عام 583هـ/1187م، نرى هؤلاء

1المرجع السابق، ص402.
2رئيسة العزة، نابلس في العصر المملوكي، ط1، دار الفاروق، نابلس، 1999، ص142.
3مجير الدين عبد الرحمن الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، مكتبة المحتسب، عمان/الأردن، 1973، ص33-48.

الصليبيين يحاولون استعادتها مرة أخرى، وقد سلمت لهم بعد ذلك مرتين: مرة في عهد الكامل الأيوبي في عام 626هـ/1229م، وبقيت في أيديهم حتى عام 637هـ/1239م عندما استردها الملك الناصر داود الدين أيوب ابن أخ الكامل، ولكن هذا الملك ما لبث أن سلمها مرة أخرى لهم في عام 641هـ/1243م، ثم استردها نهائياً الملك الصالح نجم الدين أيوب في العام التالي. وبعد أن انتهى عصر بني أيوب وقامت دولة المماليك في مصر والشام في عام 648هـ/1250م دخلت القدس في حوزتهم وظلت تحت حكمهم حتى مجيء العثمانيين لبلاد الشام في عام 922هـ/1516م وسيطرتهم على هذه البلاد ما فيها القدس[1].

إن اهتمام سلاطين المماليك بالقدس اهتماماً كبيراً، فقد سار المماليك على خطى الأيوبيين في تشجيع العلم، والعناية بالمدينة المقدسة، فاستمر بيت المقدس ـ كما كان ـمركزاً علمياً مرموقاً، وليس أدل على ذلك أنه كان قبلة العلماء وطلاب العلم، بل إن من ثمار انتعاش الحياة الثقافية في مدينة القدس ظهور عدد كبير من المؤلفات، والرسائل التي ارتبط ظهورها بمدينة القدس.

لقد كان للازدهار الاقتصادي وشيوع الأمن والاستقرار في دولة المماليك أكبر الأثر في تطور الحركة الثقافية، وشهد هذا العصر حركة نشطة في تأسيس المدارس، وتعددت المؤسسات العلمية والثقافية في المدينة. وبالتالي ظل بيت المقدس مركزاً فكرياً مهماً في العالم الإسلامي. وظل يعج بالعلماء وطلاب العلم يفدون إليه للزيارة ويقيمون فيه، بل لعلنا لا نجانب الحقيقة إذا ما قلنا أن بيت المقدس أصبح مركزاً من مراكز إنتاج المعرفة الإسلامية.

وفضلاً عن الأهمية الدينية والقداسة تضافرت مجموعة عوامل أسهمت في ازدهار الحركة الثقافية وتقدمها في المدينة المقدسة ومن أهم العوامل كثرة العلماء في المدينة، فقد أنجبت بيت المقدس مئات العلماء عبر تاريخه الإسلامي، وكذلك وفرة المعاهد العلمية وما لحق بها من مكتبات، وأسهمت هذه المعاهد في تقدم ورقي الحياة العلمية، وأقبل أهل القدس على تأسيس هذه المعاهد انطلاقاً من حرصهم على نشر العلوم والمعارف الدينية والدنيوية في أوساط طلبة العلم.

من الأمور الهامة والأساسية لانتعاش الحياة الثقافية في العهد المملوكي في مدينة القدس هو انتشار المدارس في هذا العهد، حيث شهدت مدينة القدس قفزة هائلة في بناء المدارس والأربطة والخوانق والزوايا، فاهتم السلاطين والأمراء بإقامة المنشآت العلمية والدينية والخيرية والاجتماعية في بيت المقدس من أجل توفير أسباب الحياة الطيبة لرواد وسكان القدس، فجعلوا منه نيابة مستقلة وجعلوا فيه نائباً برتبة كبيرة، وأقاموا عشرات الأبنية الخاصة بالتعليم ووقفوا فيه الوقوف الهائلة، فأصبح بيت المقدس في العهد المملوكي قبلة العلماء والأدباء وطلاب العلم من المغرب والمشرق، وأضحى بؤرة إشعاع فكري وحضاري في بلاد الشام، وأمة العلماء والفقهاء وأصحاب الفكر من جميع أنحاء العالم الإسلامي بالإقامة والتحصيل، فازدادت مدارسه فبلغت أكثر من أربعين مدرسة.

دور وأثر العلماء الوافدون في الحياة الثقافية:

بلغت الحياة الثقافية والفكرية في مدينة القدس أزهى أدوارها في العصر المملوكي، حيث استقطبت العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب على حد سواء، ومن الملاحظ أن مدينة القدس أصبحت من مراكز الإشعاع العلمي والفكري والحضاري في العصر المملوكي، خصوصاً بعد سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م وهجرة علماء العراق إلى مصر والشام وخاصة إلى مدينة القدس وقد تمثل ذلك في عدد من المؤلفات والرسائل ارتبطت ولادتها في مدينة القدس، وكان للعلوم الدينية النصيب الأكبر من تلك الدراسات والبحوث، ومع ذلك فقد نبغ العديد في علوم الأدب واللغة والنثر والشعر والتاريخ والعلوم الشرعية، مما يدلل على اتساع دائرة النشاط الثقافي في بيت المقدس في العصر المملوكي واتصال حلقاته حتى نهاية دولتهم.

على الرغم من المكانة الدينية لمكة المكرمة والمدينة المنورة، فإن الحياة فيهما كانت قاسية، لذا فإن كثير من العلماء لم يستسيغوا الإقامة الطويلة فيهما، علاوة عن بعدهما عن مركز النشاط الحضاري في العالم الإسلامي في عصر سلاطين المماليك. أما مدينة القدس فكانت الحياة فيها أطيب نسبياً لاعتدال جوها، وكذلك وقوعها داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة الإسلامية عندئذ، كذلك كان لها عشاقها الكثيرون وخاصة بعد تلك الغيبة الطويلة التي انتزعت فيها من أحضان الدولة الإسلامية الأم ونقصد بذلك تلك الفترة التي عاشتها في ظل الحكم الصليبي من عام 492هـ/1099م وحتى عام 583هـ/1187م حين استرجعها صلاح الدين الأيوبي.

1عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ط2،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ص766.

كان لمدينة القدس جاذبيتها الخاصة في عيون المسلمين مثلها مثل مكة والمدينة، فلقد ارتبطت في الوجدان الإسلامي كونها أولى القبلتين وثالث الحرمين، فضلاً عن ارتباطها بحادثة الإسراء والمعراج، تلك الجاذبية الخاصة التي تتضح أشد الوضوح عند متقفي ذلك الزمان، ولا سيما من تخصص منهم في العلوم. وبالتالي ازداد رحيل العلماء والفقهاء والمحدثين من شتى الأمصار الإسلامية إلى هذه المدينة لزيارتها، وقد روي أن أحد العلماء وهو شهاب الدين الظاهري المتوفى عام 755هـ/1354م أنه قد زار القدس أكثر من ستين مره[1]. وكانت هذه الزيارات من أجل سكنها والمجاورة لمسجدها المبارك والأخذ عن علمائها أو للاشتغال بالتعليم والتدريس وتولي الوظائف الدينية وغيرها فيها، مما أدى إلى نهضة علمية كبيرة في هذه المدينة وإلى ازدهار الحركة العلمية فيها بعد أن ازداد عدد المؤسسات العلمية والتعليمية فيها زيادة كبيرة خلال العهد المملوكي.

شهد العصر المملوكي في مدينة القدس نوعاً من الأمن والاستقرار، الأمر الذي شجع الكثيرون من الأسر المسلمة من الشرق والغرب على الهجرة إليها والاستقرار فيها، بالإضافة إلى الهجرات الناتجة عن تدهور أحوال العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، مما جعل سلطنة المماليك الحصن الأخير للحضارة العربية الإسلامية، وقد حفظت لنا كتاب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين والأدب والتاريخ الذين رحلوا من المغرب إلى المشرق في طلب العلم والدين. وهذا كتاب(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) لمؤلفه أحمد المقري التلمساني الذي يخصص جزءاً يقترب من ثلث حجمه لذكر أولئك العلماء. وقد كان العلماء الذين يفدون إلى بيت المقدس يسمعون التفسير والحديث والفقه في المسجد الأقصى، فضلا عن عدد كبير من المدارس التي وجدت في المدينة[2].

تولى الكثير من العلماء الوافدون إلى القدس بعض الوظائف المهمة والرفيعة مثل القضاء وغيره إلى جانب ما أورده لنا مجير الدين الحنبلي من أن مدينة القدس كانت حافلة بكثير من علماء المغاربة الذين وفدوا إليها في عصر سلاطين المماليك، وكانت لهم مشاركة في كثير من العلوم الدينية[3]، لم تقتصر هجرة العلماء ورجال الدين إلى بيت المقدس على العلماء المغاربة، بل شملت أيضا كثيراً من العلماء من كل أنحاء المشرق، وليس أدل على ذلك ما يذكره لنا ابن إياس في وفيات سنة 890هـ/1485م أيام السلطان الأشرف قايتباي، يقول أن الأخبار جاءت من القدس بوفاة الشيخ سعد الله الهندي الحنفي إمام المسجد الأقصى، وفي قوله الهندي إشارة إلى أنه من الهند، وهذا يؤكد لنا أن بيت المقدس في ذلك العصر جذبت العلماء من مختلف الجنسيات. كما تشير المصادر المعاصرة إلى كثرة العلماء الذين وفدوا إلى القدس من العراق، ولاشك أن هذا يعود إلى ما تمتع به هؤلاء من أمن واستقرار في مدينة القدس بعكس ما كانت عليه الحال في بلادهم التي كانت خاضعة لحكم المغول الوثنيين[4]. إلى جانب هجرة كثير من العلماء من تبريز نتيجة لغزوات المغول أيام هولاكو، وما تذكره المصادر عن كثير من العلماء الذين وفدوا من بلاد الروم، والتركمان والذين لمع ذكرهم، وكانت لهم مشاركة في كثير من العلوم الدينية. ومن الملاحظ أن عدداً كبيراً من هؤلاء كانوا من الحنفية بينما كان القليل منهم من الشافعية، ولعل ذلك راجع إلى انتشار المذهب الحنفي بالبلاد التي جاءوا منها، بينما كان المذهب الشافعي أكثر انتشاراً في بيت المقدس ومصر وبلاد الشام[5].

ترجم ابن حجر لعدد كبير من العلماء وطلاب العلم الذين رحلوا إلى بيت المقدس في العهد المملوكي وسكنوا وتعلموا، وصاروا من أهلها، وتوفوا فيها وحملوا لقب المقدسي وشغلوا أعلى المناصب في مؤسساتها الدينية والعملية والتعليمية، وقد هاجر إليها هؤلاء العلماء من شتى أنحاء العالم الإسلامي من غزة، وحماة، وحلب، وحمص، وبغداد، ومصر، وغرناطة، قد رأى ابن بطوطة بعضهم حين زار القدس.

وتشير كثير من المصادر والمراجع إلى أن مدينة القدس أصبحت في عصر السلاطين المماليك مهوى أفئدة كثير من العلماء وطلبة العلم في ذلك الوقت بجانب صبغتها الدينية، مع تعدد مدارسها التي حظيت برعاية الحكام من سلاطين وأمراء وكثيرين من أهل البر والذين جادوا لها بالأموال والعقارات التي خصصت لأعمال الخير وكان ينفق من ريعها على العلماء وطلبة العلم. فضلاً

1عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ط1، تحقيق د. جعفر الحسني، دار الكتاب الجديد، 1981، ص173.
2علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، 1986، ص122.
3نقولا زيادة، لمحات من تاريخ العرب، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1961، ص171-172.
4علي، القدس، ص122-123.
5ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج1، تحقيق أحمد سيف نجاتي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956، ص214.

عن تعدد مساجدها وزواياها التي تعقد فيها حلقات التدريس، كذلك أنجبت مدينة القدس الكثير من العلماء الذين أغنوا الحياة العلمية بنتاجهم العلمي[1].

فمن غزة أتى إليها علي بن سالم ين عبد الناصر الغزي الشافعي الذي تولى التوقيع بغزة وهو أديب ناظم، له شعر، وخمس البردة، ودرس بالمدرسة الجراحية بالقدس ومات فيها في عام 747هـ/1346م[2]. وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة عالماً آخر أتى من نابلس وتولى منصب الخطابة في المسجد الأقصى وهو الشيخ عماد الدين النابلسي. ومن طبرستان أتى إليها المحدث الفتى شهاب الدين الطبري، ومن غرناطة بالأندلس رحل إلى القدس مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمية أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي[3].

وليس أدل على أن بيت المقدس كانت إحدى المراكز العلمية الهامة في عصر سلاطين المماليك، وإنها كانت قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة، من أن كبار علماء ذلك العصر وفدوا إليها وتلقوا جانباً من تعليمهم بها، مثال ذلك مؤرخ الشام شمس الدين الذهبي الذي توفي سنة 748هـ/1347م، وشهاب الدين بن مجي فقيه الشام المتوفى عام 816هـ/1413م. كذلك يروي لنا البدر العيني انه سافر إلى بيت المقدس عام 788هـ/1386م، حيث لازم شيخ علماء مصر في ذلك الوقت والذي كان مقيماً في القدس وهو علاء الدين علي بن أحمد بن محمد السيرافي[4].

وقد أتى من بلاد المغرب العربي عدد من فقهاء المماليك سكنوا القدس واستوطنوها، منهم الشيخ الصالح عمر عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي، فهو الذي انشأ الزاوية من ماله ووقفها على الفقراء والمساكين في عام 703هـ/ 1303م وتوفي في القدس ودفن فيها. ومنهم الشيخ الصالح زين الدين عبد الرحمن الكردبيس المغربي المالكي، كان من أولياء الله الصالحين، توفي بالقدس قبل عام 800هـ/1397م. والشيخ موسى المغربي المالكي الذي كان من ذوي الكرامات، وكان سبباً لترتيب صلاة المالكية في القدس، توفي بمدينة الخليل في حدود عام 800هـ/1397م[5].

ومن حماة أتى إلى بيت المقدس ونزلها إسماعيل بن أبي بكر بن إبراهيم الكالح الحموي المولود عام 681هـ/1282، ومات بها عام770هـ/1359م[6]. ومن حمص أتى إليها يوسف بن عمر بن علي الحمصي ثم المقدسي المولود عام 695هـ/1295م، تعلم في حمص وحلب ورحل إلى القدس وعلم بها وسمع منه أبو حامد بن ظهيرة وأجاز لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن جماعة ومات حوالي 770هـ/1368م[7].

ومن حلب جاء محمد بن محمود بن اسحق بن أحمد الحلبي ثم المقدسي الذي صنف تاريخ بيت المقدس، وكان حنفياً فتحول عند القاضي تاج الدين السبكي شافعياً في عام 776هـ/1374م[8].

ومن دمشق أتى إلى القدس المسند بدر الدين محمد بن الأمير سيف الدين قلنج بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي، ابن أخي الحافظ أبي سعيد العلائي، ولد سنة 715هـ / 1315م في دمشق وسمع من جماعة ورحل إلى القدس وتوفي بها في شعبان سنة 776هـ/1374م[9].

أما من مصر فقد أتى تقي الدين إسماعيل بن علي بن الحسين بن سعد بن صالح بن القرقشندي المصري، أنجب أولاداً وأحفاداً اشتغلوا في هذا الميدان وكان أحدهم أستاذاً لابن حجر، وآخر أستاذاً لمجير الدين الحنبلي، كما أتى من مصر القاضي بدر

1Le Strange, Palestine Under the Muslims, Florance, 1890, p.85
2ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج3، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص51.
3شهاب،الحياة العلمية، ص57.
4العيني، السيف الهندي في سيطرة الملك المؤيد (شيخ المحمودي)، القاهرة، 1967، ص9.
5الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص244.
6شهاب،الحياة العلمية، ص57.
7العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص467.
8المصدر السابق، ج4، ص251.
9الحنبلي، الأنس، ج2، ص158-159.

الدين أبو المعالي محمد بن محمد بن عبد اللطيف بن يحيى السبكي الأنصاري ولد بالقاهرة 736هـ/1335م وتعلم في مصر والشام، درس وأفتى وتولى قضاء العسكر بدمشق، ثم ارتحل إلى القدس واستقر فيها وتوفي عام 771هـ/1369م[1].

ويروي ابن العماد في حديثه عن ابن حجر العسقلاني في أنه رحل وانتقل وحصل ببيت المقدس على أيدي الكثيرين من علمائها أمثال شمس الدين القلقشندي وبدرا الدين بن مكي وغيرهما. وما يرويه ابن حجر نفسه من أن القدس كانت محط أنظار كثير من العلماء وطلبة العلم للأخذ على شيوخها، والحصول على الإجازات العلمية منهم وكذلك فقد رحل الكثير من العلماء إليها لكي يسمع أولاده بها[2].

وفضلاً عما تشير إليه بعض المصادر من أن مشاهير العلماء كانوا يفضلون الحياة فيها على العاصمة، من ذلك ما يروى عن الشيخ جمال الدين عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين البلخي (ت698هـ/1299م) والذي كان يشتغل بالعلم في القاهرة، ثم انتقل إلى القدس إلى أن توفي فيها، وكان شيخاً عالماً بالتفسير[3].

وأخيراً يجب أن نشير إلى أنه كانت من نتيجة هجرة كثير من العلماء إلى القدس في ذلك العصر، أن أنشأت كثير من الأسر العلمية التي أثرت تأثيراً واضحاً في العلم في القدس بما أنجبته من علماء، لما كان لهؤلاء من جهود علمية ومؤلفات. وسأكتفي هنا بالإشارة هنا إلى أهم هذه الأسس ومنها بنوكيكلدي، بنو القلقشندي، بنو جماعة، بنو الديري، بنو قدامة وبنو غانم.

مظاهر انتعاش الحياة الثقافية:

حظيت العلوم الدينية بسهم وافر من المؤلفات والكتب الأمر الذي جعل مدينة القدس إحدى المراكز الخصبة للفكر الإسلامي في العهد المملوكي. أما ثمرة ذلك فقد نبعت في عدد كبير من المؤلفات والكتب، والتي ارتبطت ولادتها ببيت المقدس لتجعل من هذه المدينة مركزاً من أهم مراكز الحضارة العربية والفكر الإسلامي في عصر سلاطين المماليك، كما ارتبطت بأسماء عربية لامعة مثل ابن غانم المقدسي وهو الحافظ عز الدين عبد السلام أحمد المقدسي المتوفى عام 678هـ-1279م، وكذلك الشيخ حكيم صوفي، واعظ ومن تصانيفه (حل الرموز ومفاتيح الكنوز)، (الروض الأنيق في الوعظ الرشيق)، (كشف الأسرار عن الحكم المودعة في الطيور والأزهار،(كشف الأسرار القلبية)، وأيضاً ابن قدامة الحنبلي المقدسي، الذي انتهت إليه رياسة مذاهب الإمام أحمد بن حنبل في زمانه، وشرح كتاب(المقنع) في الفقه تأليف عمه شيخ الإسلام موفق الدين رحمه الله[4].

نلاحظ مما سبق أن الفقه كان أوسع انتشاراً في القدس بصفة خاصة، وكان يدرس على المذاهب الأربعة، لكن المذهب الأكثر انتشاراً بحسب ما جاء عند ابن حجر هو الفقه الحنبلي بدليل أن معظم فقهاء القدس يحملون لقب الحنبلي وقليلهم يحمل لقب الشافعي أو المالكي أو الحنفي[5]. وإن كان معظم قضاة القدس من الشافعية في عصر سلاطين المماليك الذين كانوا يجعلون الصدارة في دولتهم لأصحاب هذا المذهب[6].

وقد أشار ابن حجر إلى عالم حنفي مقدسي هو علاء الدين علي بن منصور بن ناصر الحنفي المقدسي ويقول أنه تفقه وشرح (المغني في أصول الفقه) ودرس في المدرسة التنكزية بالقدس ومات عام 748هـ/1347م. ومن الكتب التي ألفها المقادسة في علم الفقه، كتاب (الفروق في المسائل الفقهية) لعماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد بن سرور المقدسي المتوفى عام 714هـ/1314م، وكتاب (تحفة السائل في أصول المسائل) وهو كتاب منسوب للشيخ محمد بن موسى الطوري المقدسي المتوفى سنة 721هـ/1321م، وكتاب (بغية السائل في أمهات المسائل في أصول الدين)، (مختصر الحاصل في أصول الفقه)، (القواعد الكبرى والصغرى)،(الإكسير في قواعد التفسير)، (الرياض النواضر في الأشباه والنظائر)، (بقية الواصل إلى معرفة الفواصل)[7]. وشهاب الدين أحمد بن جبارة المرداوي الحنبلي الزاهد الفقيه الأصولي المقرئ، النحوي أحد شيوخ ابن الوردي، أقام في حلب ثم القدس، وكان

1الحنبلي، الأنس، ج2، ص158-159.
2علي، القدس، ص123.
3ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص4.
4ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 358.
5ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص8-9، ص251، ج1، ص441.
6الحنبلي، ج2، ص118-119.
7أحمد سامح الخالدي، أهل العلم بين مصر وفلسطين، القدس، 1947، ص10-11.

صالحاً زاهداً، وله مصنفات منها (شرح الشاطبية) في أربع مجلدات[1]. ومن الكتب الأخرى في علم الفقه كتاب(الأحكام) في ثمان مجلدات، (المحرر في الأحكام)، (الرد على السبكي في رده على ابن تيمية)، والمجلد الأول من كتاب (العلل على ترتيب كتب الفقه)، وهي كتب لشمس الدين محمد بن أحمد بن أحمد بن عبد الهادي المتوفى عام 744هـ/1343م[2]، وكتاب (أصول الفقه على المذهب الحنفي) لشمس الدين محمد بن مفلح المقدسي المتوفى عام 762هـ/1361م وله أيضاً كتاب (الفروع) في أربع مجلدات، وكتاب (تحقيق المراد في أن الرأي يقتضي الفساد) للشيخ أحمد بن محمد بن عثمان الخليلي المقدسي المتوفى عام 805هـ/1402م، وكتاب (شرح المقنع في فروع الفقه الحنبلي) لعز الدين محمد بن علي بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي المتوفى عام 820هـ/1417م[3].

ازدهرت علوم القرآن وخاصة علم القراءات في مدينة القدس في العهد المملوكي. وظهر علماء مقدسيون تجاوزت شهرتهم إلى خارج فلسطين، وكان منهم كبار القراء المقدسيين الذين درسوا الطلاب في المساجد والمدارس، ومنهم على سبيل المثال شمس الدين الجزري وهو من العلماء الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري وله مصنفات جليلة منها كتاب (النشر في القراءات العشر)، (ذيل على طبقات القراء للذهبي)، و(الحصن الحصين في الأدعية والأذكار).

ومن علماء القراءات أيضاً أحمد بن محمد بن جبارة المقدسي المتوفى سنة 728هـ/1327م الفقيه الأصولي النحوي والمفسر الذي انتهت إليه مشيخة بيت المقدس، وله كتاب في التجويد يسمى (شرح الرائية ونونية السخاوي في التجويد) (شرح عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد للشاطبي)، و(فتح القدير في التفسير)[4]. وقد استكمل محمد بن يعقوب المقدسي المتوفى عام 749هـ/1348م الشاطبية والتي كان بدأ بها أبو محمد القاسم الشاطبي الأندلسي، وسماها(الدر النضير في روائد القصير)[5].

ألف علماء القدس أيضاً كتباً أخرى في علم القراءات منها كتاب (النشر في القراءات العشر)،(نظم العشرة)، (ذيل على طبقات القراء للذهبي)، وهي كتب صنفها شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن محمد الجزري الشافعي الذي تولى التدريس في المدرسة الصلاحية في القدس وتوفي بها عام 827هـ/1424م[6].

كما ألف شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن حسين بن حسن بن أرسلان الرملي المقدسي الشافعي، الذي كان مقيماً بالزاوية الختنية بالقدس وتوفي بها عام 844هـ/1440م كتباً عديدة في علم القراءات، منها على سبيل المثال (نظم علم القراءات) و(نظم القراءات الثلاث الزائدة على العشر) وأعربها أعرابا جيداً، ونظم في علم القران فصولاً تصل إلى 60 نوعاً. وكذلك الشيخ علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي، اشتغل بالعلوم وسمع الحديث وكتب الكثير من الفقه والعلم بخطه المتقن، وولي التدريس بالمدرسة الصلاحية، وصار عالماً كبيراً واشتغل عليه فضلاء بيت المقدس[7].

كذلك ألف العلماء في مدينة القدس كتباً عديدة في علم التفسير أي تفسير القران الكريم، ومن هذه الكتب كتاب (فضائل القران) للضياء المقدسي المتوفى عام 623هـ/1245م[8].

أما الشيخ الإمام الزاهد المفسر جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن الحسن البلخي المقدسي الحنفي المعروف بابن النقيب المولود بالقدس عام 621هـ/1224م والمتوفى بها عام 698هـ/1298م، فله مصنف في التفسير، وهو مصنف حافل كبير جمع فيه 50 مصنفاً من التفاسير وبلغ تسع وتسعين مجلداً[9]. وهناك كتاب في التفسير يسمى (فتح القدير في التفسير) لأحمد بن محمد بن جبارة المقدسي المتوفى عام 728هـ/1328م[10]، وهناك كتاب مصنف جمع فيه التفسير في المجلدات، ولكنه لم يكتمل لشمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنفي المتوفى عام 744هـ/1343م. وهناك كتاب في التفسير

1الشيخ زين الدين عمر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، طبع النجف، 1969، ص406.
2ابن حجر، الدرر، ج3، ص332.
3شهاب، الحياة العلمية، ص43-44.
4عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج2، مكتبة المثنى، بيروت، 1957، ص125-126.
5كحالة، معجم المؤلفين، ج12، ص117.
6الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص109.
7المصدر السابق،ج2، ص106.
8كحالة، معجم المؤلفين،ج10، ص263.
9الحنبلي،الأنس الجليل، ج2، ص217.
10كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص120، ص126.

يسمى (برهان التيسير في عنوان التفسير) للعالم الكبير خليل بن كيكلدي العلائي المقدسي المتوفى في عام 761هـ/1359م[1]. وللشيخ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم بن جماعة القاضي المنقطع عن الخطابة ببيت المقدس والمتوفى عام 790هـ/1388م، كتاب في التفسير في عشرة مجلدات، قرأه بن حجر بخط المؤلف ذاته ويقول: إن في هذا الكتاب غرائب وفوائد[2].

أما علم الحديث فقد تركز تدريسه في فلسطين عامة والقدس خاصة لا سيما في المسجد الأقصى وفي دور الحديث التي خصصت لتدريس مثل هذه العلوم، ومنها دار الحديث السيفية التي تولاها صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي الدمشقي ثم المقدسي المتوفى بالقدس عام 761هـ/1360م، وكان هذا الشيخ عالماً بارعاً محققاً بقية الحفاظ كما قال مجير الدين الحنبلي عنه، درس في الصلاحية بالقدس، وتولى مشيخة دار الحديث السيفية، ثم درس الحديث بدار حديث أخرى وهي دار الحديث التي كانت تضمنها المدرسة التنكزية والتي شرط واقف هذه المدرسة أن يكون عدد القراء فيها عشرين[3].

كان نشاط دور الحديث يدور حول تدريس كتب الحديث وشرحها وضبطها والنظر في أسانيدها، وقد أورد ابن حجر عدداً لا بأس به من علماء الحديث المقدسيين وكان بعضهم يشتغل بهذا العلم هو وعدد من أفراد أسرته، ولذلك كان يشار إلى أحدهم أو يقال عنه أنه من"بيت حديث" مثلما قيل عن علاء الدين علي بن أحمد بن أبي بكر المقدسي المتوفى عام 770هـ/1368م،فقد ذكر ابن حجر أن هذا المحدث كان هو وأبوه وجده وعمه من بيت حديث[4]. وكذلك فقد كان هناك عالم آخر هو سليمان بن حمزة بن عمر بن قدامة المقدسي المتوفى عام 715هـ/1315م، وقال عنه ابن حجر "انه عني بالحديث وقراءته وكتابته"، فقرأ الكتب الكبار والأجزاء[5]، وقد ألف العلماء المقادسة مؤلفات عديدة في علوم الحديث وغيرهم، ومن هؤلاء المؤلفين الشيخ صلاح الدين خليل بن كيلكدي بن عبد الله العلائي الشافعي المحقق بقية الحفاظ، جد واجتهد حتى فاق أهل عصره في الحفظ والإتقان، انتقل إلى القدس مدرساً في المدرسة الصلاحية وأقام بها، وقد كان مصنفاً في علم الحديث ومعرفة الرجال، علّامة في معرفة المتون والأسانيد، ومن مؤلفاته فهرس مسموعاته في كتاب سماه (الفوائد المجموعة في الفوائد المسموعة)، وكتاب (تحفة الرائض بعلوم آيات الفرائض)، (الأربعين في أعمال المتقين)، (شرح حديث ذي اليدين) في مجلد، (تنقيح المفهوم في صيغ العلوم)، (مختصر جامع الأصول لأحاديث الرسول)، (تفصيل الإجمال في تعارض الأقوال والأفعال)[6]. أما الشيخ محب الدين بن الهائم المصري، المتوفى عام 798هـ/1395م، اشتغل بالفقه والعربية والقراءات والحديث وقد رافق ابن حجر في سماع الحديث كثيراً، ثم صنف وخرج لنفسه وغيره، وهو أذكى من رآهم ابن حجر من الدين والتواضع وحسن الخلق والصيانة[7]. ومن الكتب الأخرى في علوم الحديث التي ألفها العلماء في مدينة القدس كتاب (مناقب أصحاب الحديث) في أربعة أجزاء، وكتاب (الأحاديث المختارة) في تسعين مجلداً للضياء المقدسي المتوفى عام 643هـ/1245م، ولكنه لم يستكملها[8]. وكتاب (المنهل الروي في علوم الحديث النبوي) لقاضي قضاة القدس بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة المقدسي المتوفى عام 733هـ/1322م، وكتاب (شرح حديث مسلم) في مجلدات لقاضي قضاة القدس وخطيبها عماد الدين أبي حفص عمر بن عبد الرحيم بن يحيى القرشي الشافعي المتوفى عام 734هـ/1333م، وكتاب (المحرر في الحديث) اختصره شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنبلي المتوفى عام 744هـ/1343م. وقد ألف قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي المتوفى عام 744هـ/1343م كتاب (تنقيح التعليق في أحاديث التعليق) لابن الجوزي وهو كتاب في مجلدين. وقد ألف شمس الدين محمد بن يحيى المقدسي المتوفى عام 759هـ/1358م، كتاب (الأربعون حديثاً)، وكتاب (الوشي المعلم فيمن روي عن أبيه عن جده عن النبيصلى الله عليه وسلم)، وكتاب (المدلسين)، (المئة المنتقاة من صحيح مسلم)، (المئة المنتقاة من سنن الترمذي)،و (المئة المنتقاة من مشيخة الفخر الرازي) وهي كتب صنفها الشيخ صلاح الدين خليل بن كيكلدي

1كحالة معجم المؤلفين، ج4، ص126.
2ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص38-39، الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص106.
3عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص59، ص62، الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص106-107.
4ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3، ص23.
5المصدر السابق، ج2، ص 146-147.
6المقريزي، السلوك، ج3، ق1، ص55، رشاد الإمام، مدينة القدس، ص214-215.
7ابن حجر، انباء الغمر بأبناء العمر، ج1، تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة، 1971، ص519.
8كحالة، معجم المؤلفين، ج10، ص263.

العلائي الدمشقي المقدسي المتوفى بالقدس عام 761هـ/1361م[1]. أما جمال الدين أحمد بن محمد بن سرور المقدسي المتوفى عام 765هـ/1363م، وله أيضاً كتاب اقتفاء المنهاج في أحاديث المعراج[2]. وهناك كتاب (شرح البخاري) في ثلاث مجلدات، و(شرح سنن أبي داود) لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حسين بن حسن بن أرسلان الرملي المقدسي المتوفى بالزاوية الختنية بالقدس عام 844هـ/1440م[3]، وتلك أمثلة لما ألفه علماء القدس في علوم الحديث.

كان لعلماء القدس فضل في اللغة العربية وعلومها، فقد كان لابد للدارس أو العالم من أن يتعلم هذه اللغة وعلومها، ويدرس المتاح من كتبها، ونذكر من بين علماء اللغة العربية على سبيل المثال: شرف الدين احمد بن الحسن بن عبد الله أبي عمر المقدسي الحنبلي المتوفى عام 771هـ/1369م، حيث ألف كتاب اسماه (القصد المفيد في حكم التوكيد)[4]، أما الشيخ نجم الدين الطوخي الصرصري فألف مصنفات في الأدب العربي منها (الرحيق المسلسل في الأدب)، وكتاب (تحفة أصل الأدب في معرفة لسان العرب)، وكتاب (شرح مقامات الحريري)، وكتاب (موائد الحبس في شعر امرؤ القيس)[5]. وهناك من العلماء من ألف كتباً في النحو ومنها العالم شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي المتوفى عام 744هـ/1343م، حيث ألف كتاب (التسهيل في النحو) في مجلدين، والعالم شهاب الدين أحمد بن الحسن بن عبد الله بن عبد الغني المقدسي المتوفى عام 771هـ/1369م، فقد ألف كتاب (القصد المفيد في حكم التوكيد)[6].

ومن الكتب التي ألفت في مدينة القدس حول موضوع التصوف فقد ألف ابن غانم المقدسي كتاب (حل الرموزوفواتيح الكنوز)، وقد كتبه ليبين للناس أنهم يجب أن يتبعوا من الكلام معانيه، ومن الحكم ما يبلغون به أمانيهم[7]، وقد ألف أحمد بن سلمى المقدسي المتوفى عام769هـ/1367م كتاباً عن التصوف بعنوان(اختيار الرفيق لطلاب الطريق)[8].

أما علم التاريخ فقد كان له نصيب وفير من نشاط وازدهار الحياة الثقافية في القدس، ويدلل على ذلك بروز عدد من الأعلام الذي أنجبتهم مدينة القدس حيث ألف ضياء المقدسي المتوفى عام 643هـ/1245م كتاب (فضائل الشام)، وكذلك كتاب (سير المقادسة)، وهو يشرح به سبب هجرة أهل القدس إلى دمشق، وألف كذلك كتاب (مناقب جعفر بن أبي طالب)، وهو كتاب مطبوع. وقد ألف أبو شامة المقدسي المتوفى سنة 665هـ/1266م، كتاب مهم في التاريخ وهو كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية). أما برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري الشافعي الدمشقي المعروف بابن الفركاح المتوفى عام 729هـ/1329م، والذي أخذ علمه من علماء القدس فقد ألف كتاب (باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس)، وكتاب (الأعلام بفضائل الشام)[9]، أما ابن فضل الله العمري المتوفى عام 749هـ/1348م، فقد ألف عدة كتب تنوعت بين (تقويم البلدان والتاريخ)، (شؤون الإدارة)، (تراجم الشعراء في المشرق والمغرب)، وكتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) والذي شمل معارف وعلوم عديدة وألف الشيخ الحافظ المحدث جمال الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال القدسي الشافعي المتوفى عام 765هـ/1363م، كتاب (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام)، ويسمى أيضاً (مثير الغرام بفضائل القدس والشام)[10].

كما أن ابن سرور المقدسي المتوفى عام 765هـ/1363م فقد ألف عدة مؤلفات منها (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام) ويعتبر هذا الكتاب أحد كتب الفضائل الهامة والتي تحدثت عن تاريخ بيت المقدس منذ الفتح الإسلامي حتى فتح صلاح الدين الأيوبي للمدينة. كما صنف الشيخ محمد بن محمود بن اسحق الحلبي المقدسي المتوفى عام 776هـ/1374م كتاب (تاريخ بيت المقدس)[11]. أما تاج الدين التدمري المتوفى عام 833هـ/1429م فله كتاب أسماه (مثير الغرام إلى زيارة الخليل عليه الصلاة

1كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص 62، ص160.
2الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص106-107.
3المصدر السابق، ج2، ص106.
4ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص121، ص130.
5علي السيد علي، أضواء على عروبة القدس، أضواء على عروبة القدس، مجلة التربية، قطر، ع136، آذار 2001، ص222-223.
6ابن حجر، الدرر، ص120-121
7علي، أضواء على عروبة القدس، ص222.
8كحالة، معجم المؤلفين، ج1، ص236.
9كحالة، مصدر سابق،ج1، ص19.
10الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص157.
11ابن حجر، الدرر، ج4، ص251، كحالة، معجم المؤلفين، ج11، ص314.

والسلام). أما ابن شاهين المتوفى سنة 873هـ/1468م فمن أهم مؤلفاته (زبدة كشف الممالك)، وكتاب (بيان الطرق والمسالك)، مع العلم أنه قد ألف ثلاثين مؤلفاً. أما مؤلف كتاب (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) فهو من أهم مؤلفات مجير الدين الحنبلي المتوفى عام 928هـ/1522م، حيث ولد وتوفي في مدينة القدس، وجمع في كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل تواريخ مدينتي القدس والخليل من آدم عليه السلام إلى سنة 1494م، ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت تاريخ مدينة القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، حيث رجعت إليه كثيراً في أطروحتي هذه وقد تم تقسيم الكتاب إلى مواضيع مستقلة كالمدارس والمساجد والأسواق والكنائس والمزارات، وضمن كل موضوع يتتبع الترتيب الحولي عند ذكره الحوادث السياسية المتعلقة بالموضوع، إلا أن الاهتمام الأكثر كان بالأحداث الدينية الطابع ونشاط الفقهاء والعلماء.

وهناك كتب أخرى صنفها المقادسة في الحرب والسياسة، منها كتاب (تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام)، وكتاب (مستند الأجناد في آلات الجهاد) وكتاب (حجة السلوك في مهاداة الملوك)، وهي كتب قام بتصنيفها قاضي القدس شيخ الإسلام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة المتوفى عام 733هـ/1332م[1].

وهكذا رأينا أن علماء وفقهاء القدس قد ألفوا كتباً طبع بعضها وما زال البعض الآخر مخطوطاً ومنها ما فُقد، ولولا بعض الكتاب الذين أرخوا للقدس مثل ابن شامة، وابن حجر، ومجير الدين الحنبلي لما عرفنا عن تلك الكتب أو مؤلفيها، ولولا هؤلاء المؤرخون وكتبهم لما عرفنا شيئاً عن النهضة العلمية التي عمت القدس في العهد المملوكي، وإن كان المقادسة قد ألفوا كتباً كثيرة وعديدة في العلوم النقلية ودرسوها لطلابهم فإنهم أيضاً ألفوا بعض المؤلفات ودرسوا أيضاً بعض العلوم العقلية.

شهدت مدينة القدس نشاطاً ملحوظاً في مجال العلوم العقلية مثل الرياضيات والطب والفلك والحساب وعمل المنجنيقات وعلوم الزراعة وغيرها. واشتهر الكثير من أبناء مدينة القدس في هذه العلوم الذي ذاع صيتهم في كل الآفاق في ذلك العهد، ففي الطب مثلاً كان العديد من علماء القدس في هذا المجال الهام ومنهم على سبيل المثال لا الحصر عماد الدين إسماعيل بن إبراهيم بن سليمان المقدسي المتوفى عام 772هـ/1330م، الذي اهتم بالطب وكان ماهراً فيه، وكان قد نقل علمه عن عماد الدين بن النابلسي وغيره من علماء الطب في ذلك الزمن، حيث كان ماهراً في المعالجة والتطبيب. وهناك عالم آخر من أهل القدس وهو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله بن عمر المقدسي المتوفى عام 772هـ/1370م، حيث كان عطاراً ويعرف جانباً من الطب[2].

أما في علم الحساب فقد اشتهر العالم المقدسي تقي الدين سليمان بن حمزة بن قدامة المقدسي المتوفى عام 715هـ/1315م، حيث شارك في علم الحساب، وبرع في الطب أيضاً زمن أهل القدس وهو جمال الدين يوسف بن أحمد بن عبد الهادي المتوفى عام 880هـ/1476مقد ترك لنا أحد مؤلفاته تحت عنوان (الإتقان في أدوية اللثة والأسنان)[3].

أهم مدارس القدس في العهد المملوكي:

شهدت مدينة القدس في العهد المملوكي قفزة هائلة في بناء المدارس والأربطة والخوانق والزوايا، فأهتم السلاطين والأمراء بإقامة المنشآت العلمية والدينية والخيرية والاجتماعية في القدس من أجل توفير أسباب الحياة الطبيعية والكريمة لرواد وسكان القدس وتنشيط المدينة بعد تحررها من الخوف والغربة الطويلة حين كانت بيد الفرنج. فجعلوا منها نيابة مستقلة وجعلوا فيها نيابة برتبة كبيرة، وأقاموا عشرات الأبنية ووقفوا فيه الوقوف الهائلة.

أصبح بيت المقدس في العهد المملوكي قبلة العلماء والأدباء وطلاب العلم من المغرب والمشرق، وأضحى بؤرة إشعاع فكري وحضاري في بلاد الشام، وأمه العلماء والفقهاء وأصحاب الفكر من جميع أنحاء العالم الإسلامي للإقامة والتحصيل، فازدادت مدارسه فبلغت نيفا وأربعين مدرسة وقد قامت دراسات وأبحاث عديدة قديمة وحديثة عن مدارس بيت المقدس منها ما ذكرهابن فضل الله

1الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص137.
2ابن حجر، الدرر، ج1، ص 275، ص363.
3 البغدادي، اسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباباني، ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون،ج1، القاهرة، 1945، ص150-151.

العمري في كتابه (مسالك الأبصار)، ولكن الحنبلي أسهب في ذكر مدارس القدس في كتابه (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل)، الذي يعتبر بحق من أهم المصادر عن تاريخ القدس في العصر الوسيط، ودراسة أخرى للمنهاجي السيوطي في مخطوطة إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ذكر فيها بعض المدارس وهناك دراسات حديثة عن هذه المدارس في مقدمتها كتاب فان برشيم (Van Berechem) الخاص بالقدس يتحدث فيه عن هذه المدارس ونقوشها ورسم مخططات لبعضها. ثم كتاب (المفصل في تاريخ القدس) لعارف العارف، وغيرها من الدراسات.

كان هناك أهمية كبيرة للأوقاف لاستمرار الحياة المدرسية وقد وفرت تلك الأوقاف موردا أساسياً ودائماً في استمرار أداء رسالة المدرسة التعليمية، فضلا عن المبالغ التي خصصت من ريع الوقف بالنسبة للقائمين عليها أو النازلين بها، وكانت المبالغ التي خصصت للصرف على هذه المدارس كفيلة بأن تهيئ لها مستوى معقولاً من المعيشة، بالإضافة إلى ما كان يصرف لكل منهم (الطلاب والموظفين) من الخبز واللحم والكسوة في المناسبات المختلفة.

إن المدارس التي يجري الحديث عنها في هذا السياق هي ما يصح أن نسميها اليوم المدارس الثانوية، التي يلتحق الطالب بها بعد أن يكون قد أنهى مرحلة التعليم الابتدائية أو الإعدادية وهي في بعض الحالات قد تكون في مستوى الكليات المعاصرة وربما ترقى إلى مستوى الجامعات[1]. أما موضوعات التدريس في تلك المدارس، فكانت لا تخرج عن الموضوعات الإسلامية التقليدية، إذ كانت تنصب على دراسات القران الكريم ومعلقاتها كعلم التفسير وعلم القراءات القرآنية، ثم تتسع الدراسة لتشمل صفوف العلوم الأخرى، كدراسة الحديث النبوي والفقه والشريعة والسيرة النبوية وعلم التاريخ، وكانت اللغة العربية وآدابها وعلما الصرف والنحو ترافق مراحل التعليم كلها، لأنها كانت الأداة الأساسية لتعليم جميع العلوم في المدرسة الإسلامية، وكان الفقه الإسلامي خاصة يتناول مدارس الفقه المتعددة التي تشمل مذاهب أهل السنة والجماعة الأربعة، وعلى رأسها المذهب الشافعي، ثم الحنفي، فالمالكي، فالحنبلي، من دون التطرق بطبيعة الحالإلى بعض المذاهب الأخرى التي كانت أقل شيوعاً والأقل إتباعاً، كمذهب الأوزاعي الذي كان له حضور ما في بلاد الشام، أو كالمذهب الظاهري الذي ظهر في الأندلس ثم انتشر بين بعض العلماء في بلاد الشام، وبالتحديد في مدينة دمشق. أما المذهب الشيعي الذي يسمى أيضا بالمذهب الجعفري نسبة إلى الإمام العلوي جعفر الصادق، فلم يكن يدَّرس في هذه المدارس في فلسطين ومصر وسائر بلاد الشام التي كانت جزءاً من دولة المماليك، في حين أنه كان لا شك يدرس في العراق وبعض الأجزاء من ولاية المشرق، كبلاد فارس وبلاد ما وراء النهر. وعلى الرغم من هذا الحظرشبه الرسمي على تدريس المذهب الجعفري في مصر وبلاد الشام، فإن بعض المدارس المتقدمة كان يفرد حيزاً كافياً لتدريس هذا المذهب وينتدب لذلك الشيوخ والعلماء المتخصصين به، كي تكتمل الصورة الفقهية في الإسلام في أذهان طلاب الفقه و الشريعة[2]. أما التعليم في هذه المدارس فقد سار وفق ما هو معروف من نظم تعليمية في بلدان العالم العربي آنذاك، من حيث كونه لم يكن خاضعاً لنظم ثابتة، أو يجري داخل مؤسسات رسمية، فضلا عن أنه كانت هناك علاقة وطيدة بين المدرس(المعلم) وطلابه، والتي تعتبر من أفضل الملامح الرئيسية في التعليم العربي والإسلامي، بالإضافة إلى إن الذاكرة كانت على جانب كبير من الأهمية، فكان على الطالب أن يتذكر الملاحظات التي تملى عليه، فضلاً عن أنه أتيح للطلاب فرصة وحرية اختيار الموضوعات التي يدرسونها وحرية التنقل من مدرسة إلى أخرى لجمع المعلومات على أيدي أكبر عدد من العلماء[3]. هذا إلى جانب أنه وجد نوع من التعليم العالي عن طريق الملازمة، حيث يعيش طالب العلم ملازماً لمدة طويلة لأستاذه بحيث يكتسب فيها معظم تعاليم أستاذه حتى يصبح هو عالماً، وأحيانا يقضي معظم عمره مع هذا الأستاذ وقد يتزوج ابنته، ويصبح خليفته[4].

إن اختلاف المدارس في العهد المملوكي مذهبيا فقد أدى ذلك إلى تجميع مسائل الخلاف بين تلك المذاهب في دراسات خاصة، عرفت باسم (علم الخلاف) وقد برع فيها كثير من علماء المقادسة في ذلك العهد، كما تركزت الدراسة في تلك المدارس حول علوم الحديث والقران واللغة العربية، فضلاً عن تدريس القراءات والوعظ، والعلوم الرياضية. هذا بالإضافة إلى أن بعض المدارس

1عثامنة، فلسطين في العهدين الايوبي والمملوكي، صفحة 404.
2عثامنة، فلسطين، ص 405.
3علي، أضواء على عروبة القدس، ص 218.
4الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 501-503.

كانت مخصصة لتدريس علم بذاته، مثل دار الحديث وهي مدرسة بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب، واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الهكاري، وكذلك دار القران السلامية تجاه دار الحديث، واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر القاسم السلامي، والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب. ومما يلفت الانتباه حقاً في مدارس القدس أنها كلها تركزت في مكان واحد حول المسجد الأقصى أو بداخله. وان هذه المعاهد العلمية قد اندثر بعضها زمن المماليك وأصبح بيوتا استولت عليها بعض العائلات المقدسية أو الأوقاف الإسلامية في العهد العثماني، إلا أنها لا تزال آثار ناطقة يجب الاهتمام بها وإصلاحها وإعادتها إلى حالتها المثلى[1].

شهدت مدينة القدس في عهد المماليك حركة واسعة في بناء المدارس، ومن أهم تلك المدارس التي تم تشييدها في هذا العهد ما يلي:

- المدرسة الدوادارية:

تقع بباب شرف الأنبياء أو باب العتم وتسمى أيضا الدويدارية، واقعة إلى شمالي الحرم وإلى الشرق من الطريق المؤدية إليه عند الباب المعروف بباب العتم، (ويسمى باب الأنبياء أو باب الملك فيصل)، كما تُعرف فيما مضى بدار الصالحين. بناها ووقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر بن عبد الله الدو أدار الصالحي النجمي سنة 695هـ / 1295م وقد ورد نقش على بابها الخارجي جاء فيه "بسم الله الرحم الرحيم أمر بإنشاء هذه الخاناقاه المباركة المسماة بدار الصالحين العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد ربه بن عبد الباري سنجر الدواداري، ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفراً من الطائفة الصوفية والمتصوفة من العرب والعجم، منهم عشرون نفراً عزاباً وعشرة مزوجون مقيمون بها لا يظعنون عنها صيفاً ولا شتاءً ولا ربيعاً ولا خريفاً إلا لحاجة، وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية والمتصوفة مدة عشرة أيام، ووقف عليها قرية بيرنبالا من القدس الشريف وقرية مجلا وفرن وطاحونة علوهما دار بالقدس ومصبنة وستة حوانيت ووراقة بنابلس وثلاثة بساتين وثلاثة حوانيت وأربع طواحين ببيسان، ووقف ذلك على هذه الخاناقاة وعلى تدريس المذهب الشافعي وعلى شيخ يسمع الحديث النبوي وقارئ يقرأ عليه عشرة أنفار يسمعون الحديث وعشرة أنفار يتلون كتاب الله كل يوم ختمة وعلى مادح ينشد مدح النبي. كل ذلك بالجامع الأقصى..."[2].

- المدرسة السلامية:

تقع هذه المدرسة بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية. إنها بجوار المدرسة الدوادارية من جهة الشمال، أوقفها الخواجا مجد الدين أبو الفدا إسماعيل السلافي حوالي سنة 701 هـ/ 1301م[3].

- المدرسة الوجيهية:

تقع بخط درج المولى، بالقرب من المدرسة المحدثية عند باب الغوانمة. ووقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا ثم أنشأها قبل سنة 701هـ/1301م[4].

- المدرسة الموصلية:

تقع بباب شرف الأنبياء بجوار المسجد الأقصى. نُسبت للخواجا فخر الدين الموصلي، جاء في سجلات المحكمة الشرعية[5] أن مدرسها ومتولي أوقافها في سنة 1175هـ/1761م، كان السيد جار الله اللطفي، ويتقاضى راتب قدره عشر عثمانيات[6].

- المدرسة الجالقية:

تقع في الزاوية الشمالية الغربية عند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق الواد، تجاه المدرسة الطازية. أنشأها ركن الدين بيبرس الجالق الصالحي سنة 707هـ/1307م[7].

1الخالدي، المعاهد المصرية في بيت المقدس، ص12.
2عارف العارف، المفصل، ص 378.
3الحنبلي، الأنس الجليل، ج 2، ص 42.
4الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 42، كرد علي، خطط الشام، ج6، ط3، مكتبة نوري، دمشق، 1403هـ/1983م، ص 119، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج7، ط1، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق/ بيروت، 1406هـ/ 1986 م، ص36.
5 السجل 244، ص122.
6عارف العارف، المفصل، ص379.
7المرجع نفسه.

- المدرسة الجاولية:

تقع بالقرب من درج الغوانمة في الزاوية الشمالية الغربية من ساحة المسجد الأقصى، وتنسب إلى واقفها علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي، نائب القدس ونائب غزة وناظر الحرمين الشريفين سنة 712هـ/1312م، حيث تم إنشاؤها في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وكان علم الدين من محبي العلم[1].

- المدرسة الكريمية:

تقع هذه المدرسة شمالي الحرم ملاصقة لباب حطة من الشرق، بنى هذه المدرسة كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم بن هبة الله بن السديد، وقد وقفها سنة 719هـ/1318م[2].

- المدرسة التنكزية:

تقع المدرسة التنكزية عند باب السلسة، وقد أوقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام سنة 729هـ/1329م، كما أنشأ تنكز مسجداً لهذه المدرسة، وتعتبر هذه المدرسة من أرقى المدارس المملوكية في القدس، وتعتبر عظيمة لأنه لا يوجد أتقن منها مدراس في البناء[3]، وأقف عليها تنكز أوقافاً كثيرة من أجل تغطية وسد حاجات المدرسة ونفقاتها، ولتوفير حاجات السكن والمأكل والمشرب للطلبة والملتحقين بها[4]، وتم اتخاذ هذه المدرسة كمركز للقضاة والنواب وديواناً للقضاة، كما أسس تنكز خانقاه وبنا داراً جديدة وداراً للأيتام، وتحتوي وقفية المدرسة على معلومات كثيرة قيِّمة من أهداف المدرسة وأقسامها وصفة العاملين فيها وشروطهم[5].

- المدرسة الأمينية:

تقع هذه المدرسة في الجهة الشمالية من الحرم إلى الغرب من باب العتم (شرف الأنبياء)، أوقفها الصاحب أمين الدين عبد الله في سنة 730هـ/1330م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.[6]

- المدرسة الملكية (المالكية):

تقع هذه المدرسة في الرواق الشمالي للحرم الشريف[7]، وقد أوقف هذه المدرسة ملك الجوكندار الملكي الناصر في سنة 745هـ/1344م، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد أوقفت عليه زوجة السلطان الناصر ملك ابنة السيفي قلطلقيم الناصري، وقد بنيت هذه المدرسة من مال الواقفة[8]، وقد قامت السيدة ملك بوقفية ثانية سنة 757هـ/1356م[9]، ويوجد في المدرسة ضريح السيدة زوجة الملك الناصري صاحبة الوقف[10].

- المدرسة الفارسية:

تقع شمالي الحرم الشريفإلى الغرب من باب العتم، أوقفها الأمير فارسي ابن الأمير قطلو ملك ابن عبد الله نائب السلطة بالأعمال الساحلية والجبلية، نائب غزة، سنة 755هـ/1354م[11]. وقد أوقف عليها أوقافاً كثيرة منها مدينة طولكرم، ونصف أراضي قرية شويكة قضاء نابلس[12].

- المدرسة الأرغونية:

1الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص38، العسلي، معاهد العلم، ص221.
2الحنبلي، الانس الجليل، ج2، ص39، كرد علي، خطط الشام، ج6، ص120، ابن حجر، الدرر، ج13، ص15.
3الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص35.
4كرد علي، خطط الشام، ج6، ص117.
5العسلي، معاهد العلم، ص130.
6الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص39، كرد علي، خطط الشام، ج6، ص119.
7العسلي، معاهد العلم، ص228.
8الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص38، العسلي، معاهد العلم، ص231.
9العسلي، معاهد العلم،ص229.
10الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص38، ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص179.
11الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص38، كرد علي، خطط الشام، ج6، ص119، العسلي، معاهد العلم، ص233.
12الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص38.

تقع عند باب الحديد، غربي الحرم الشريف على يمين الداخل إلى ساحة الحرم، وتجاه المدرسة الجوهرية. أوقفها الأمير أرغون الكاملي، نائب الشام سنة 758هـ/1358م، والذي توفي في نفس السنة، حيث أكمل بناءها من بعده الأمير ركن الدين بيبرس السيفي سنة 759هـ/1359م[1].

- المدرسة الطشتمرية (باب الناظر):

تقع بباب الناظر، وواقفها هو الأمير طشتمر السيفي من أمراء الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، أوقفها سنة 759هـ/1357م[2].

- المدرسة الأسعردية:

تقع هذه المدرسة جوار الحرم الشريف إلى الشمال منه، وقد أوقفها مجد الدين عبد الغني بن سيف الدين أبي بكر ابن يوسف الأسعردي، وقد تم بناءها عام 760هـ/1359م، إلا أنه تم وقفها سنة 770هـ/1368م[3].

- المدرسة المحدثية:

تقع بالقرب من الوجيهية عند باب الغوانمة، واقفها عز الدين أبو محمد بن عبد العزيز العجمي الأردبيلي سنة 762هـ/1360م[4].

- المدرسة الحسنية:

تقع على باب الأسباط وهي آخر المدارس في الجهة الشمالية، تم تأسيسها سنة 760هـ/1359م[5]، وقد أفاد مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل أن واقفها هو شاهين الطوشي، من دولة الملك الناصر حسن المتوفى سنة 760هـ/1359م وأضاف الحنبلي أنه لم يتحقق من كتاب وقفها، ولم يتحقق أمر المدرسة، وأضاف أن هذه المدرسة لم يكن لها حكم المدارس في النظام وأنها أصبحت سكناً[6].

- المدرسة المنجكية:

تقع في طرف الحرم من الناحية الغربية، وإلى الشمال من باب الناظر، وأنشأها الأمير سيف الدين منجك سنة 762هـ/1360م، وقد أوقف منجك على هذه المدرسة العديد من الأوقاف، وأرباب ووظائف[7].

- المدرسة الطازية:

تقع في طريق باب السلسة من الشمال، تجاه تربة بركة خان بالتمام، وإلى الغرب من المدرسة الجالقية، وقفها الأمير طاز سنة 763هـ/1361م[8]، ويقول عارف العارف "وقد أطلعنا في سجلات المحكمة الشرعية بالقدس على وثائق يستدل منها على أنه كان ينتدب للتدريس فيها فطاحل العلماء بالقدس. نذكر منهم شمس الدين أبو العباس المقدسي. وكان هذا في الوقت نفسه متولياً قضاء القدس، توفي سنة 782هـ/1380م. والشيخ محمود بن محمد الديري وقد عينه القاضي حسام الدين الحنفي قارئاً ومدرساً بأجرٍ يومي"[9].

- المدرسة البارودية:

تقع بباب الناظر بالقرب من المدرسة التشتمرية، ووقفتها الست الحاجة سفري خاتون بنت شرف الدين أبي بكر محمود المعروف بالبارودي وذلك عام 768هـ/1366م[10].

1الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص36، السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص17، العسلي، معاهد العلم، ص187-188.
2عارف العارف، المفصل، ص387.
3الحنبلي،الأنس الجليل، ص38، كرد علي، خطط الشام، ج6، ص119، العسلي، معاهد العلم، ص226.
4العسلي، معاهد العلم، ص219.
5الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص40.
6الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص40-41.
7النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ص460، العسلي، معاهد العلم، ص210.
8الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص45، عارف العارف، المفصل، ص 390.
9عارف العارف، المفصل، ص390.
10عارف العارف، المفصل، ص391.

- المدرسة الحنبلية:

تقع بباب الحديد، وقد وقفها الأمير بيدمر نائب الشام. وكان بناؤها سنة 781هـ/1379م[1].

- المدرسة اللؤلؤية:

تقع هذه المدرسة بخط مرزيان بجوار حمام علاء الدين البصير، وقد أوقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن سنة 775هـ/1373م[2].

- المدرسة الطشتمرية (باب السلسلة):

تقع هذه المدرسة على طريق باب السلسلة عبر ملتقى هذه الطريق بطريق حارة الشرف، وقد أوقفها الأمير سيف الدين بن عبد الله العلائي وتاريخ وقفها 784هـ/1382م، حيث أصرف على بنائها مالاً كثيراً كان قد جمعه من منصبه الرفيع في دولة المماليك[3].

- المدرسة البلدية:

تقع إلى الشمال من باب السكينة، وهو الباب الملاصق لباب السلسلة من أبواب الحرم الغربية، ويسمى كذلك بباب السلام، وسميت كذلك نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكلي بغا البلدي الذي أوقفها سنة 782هـ/1380م[4].

- المدرسة الجهاركسية:

تقع هذه المدرسة بجوار الزاوية اليونسية من الشمال حيث أن هذه المدرسة واليونسية من بقايا كنيسة من بناء الروم، قسمت بصفين: الأول جعل للمدرسة الجهاركسية، والثاني للزاوية اليونسية، وسميت هذه المدرسة بهذا الاسم نسبة لواقفها الأمير جهاركسي الخليلي أمير آخور الملك الظاهر برقوق، وتم وقفها قبل سنة 790هـ/1389م[5].

- المدرسة الطولونية:

تقع هذه المدرسة بداخل المسجد فوق الرواق الشمالي، يصعد إليه في نفس الدرج الذي يصعد منه إلى باب منارة الأسباط، أنشأها شهاد الدين أحمد بن الناصري محمد الطولوني الظاهري، في زمن الملك الظاهر برقوق سنة 800هـ/1397م[6]. تولى التدريس فيها الإمام العلامة شهاب الدين أبو البقاء أحمد الزبيري المصري. قدم إلى القدس سنة 830هـ/1426م وتوفي فيها سنة 854هـ/1450م، وحضر جنازته نائب السلطنة مبارك شاه[7].

- المدرسة الفنرية:

تقع مقابل المدرسة الطولونية من جهة الشرق، يصعد إليها من السلم الموصل إلى منارة باب الأسباط، وهي من إنشاء شهاد الدين الطولوني عمرّها مع مدرسته المتقدم ذكرها آنفاً، وجعلها للملك الظاهر برقوق، فلما توفي برقوق وآل الأمر لولده الملك الناضر فرج، رتب لها قرى وأقام نظامها وجعل لها معاليم تصرف، ولما توفيت أخته خوند سارة ابنة الملك الظاهر برقوق وزوجة توروز نائب الشام، دفنت بها سنة 815هـ/1412م. ولما توفي الناصر فرج لم يكن لها كتاب وقف. فاشتراها بعد وفاته رجل من الروم يقال له محمد شاه بن الفنري الرومي. فوقفها ونسبت إليه وسميت الفنرية[8]. وقال مجير الدين الحنبلي أن الذي باعها ولد منشئها ابن الطولوني[9].

- المدرسة الصبيبية:

1الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص44، عارف العارف، المفصل، ص391، العسلي، معاهد العلم، ص200.
2الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص46، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج9، ص278، العسلي، معاهد العلم، ص203.
3ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص39-55، العسلي، معاهد العلم، ص136.
4العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص392.
5الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص44، كرد علي، خطط الشام، ج6، ص122، العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص393.
6العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص393-394.
7المرجع السابق، ص394.
8العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص395.
9الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص40.

تقع في الجهة الشمالية من الحرم الشريف، واقعة غربي المدرسة الاسعردية، بينها وبين المدرسة الجاولية. واقفها الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين[1]، ولي نيابة القدس وعمر بها مدرسة. وتوفي بدمشق سنة 809هـ/1406م. وقد نقل إلى هذه المدرسة، وقد أوقف عليها الأمير علاء الدين أوقافاً كثيرة، إلا أنها أُكلت[2].

- المدرسة الكاملية:

تقع بخط باب حطة بجوار المدرسة الكريمية من جهة الشمال، وأوقفها الحاج كامل من أهل طرابلس. ولا يوجد لها كتاب وقف ولكن هناك محضراً كتب بوقفها عام 816هـ/1413م[3].

- المدرسة الباسطية:

تقع شمالي الحرم، قريبة من الباب العتم مطلة على المدرسة الدوادارية. أول من اختطها وقصد عمارتها هو شيخ الإسلام شمس الدين محمد الهروي شيخ المدرسة الصلاحية ناظر الحرمين الشريفين. ولكن المنية أدركته قبل إتمام عمارتها فعمرها القاضي زين الدين عبد الباسط ابن خليل الدمشقي ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة، وقد وقف من أجلها بعض الأراضي والأملاك، وكان ذلك في سنة 834هـ/1430م. ومن الذين تولوا التدريس فيها العالم المحدث شمس الدين أبو عبد الله محمد الشهير بابن المصري، توفي سنة 841هـ/1437م[4].

- المدرسة القادرية:

تقع شمالي ساحة الحرم بين باب حطة من الغرب ومئذنة إسرائيل من الشرق، أوقفها الأمير ناصر الدين محمد بن القادر بعد أن عمرتها زوجته مصر خاتون. ولم يوجد لها كتاب وقف. فكتب محضراً من ماله بوقفها، وقد أوقفت سنة 836هـ/1432م في عهد السلطان الأشرف برسباي[5].

وقد كتب على واجهة المدرسة نقش محي أكثره حيث لا يمكن قراءته، ونورد هنا كيف يظهر الآن، جاء فيه "بسم الله الرحمن الرحيم.. الملك الأشرف خلد الله ملكه... وذلك بتاريخ شهر ربيع الآخر من شهر....[6]. وأما الكلمات الباقية فقد محيت وهي ليست بشكل يمكن قراءته. غير أن المنقبين الذين بحثوا الأمر، قالوا إن أصل الكتاب كان كما يلي "بسم الله الرحمن الرحيم. أنشأت هذه المدرسة المباركة الدر المصونة مصر خاتون زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن القادر في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه وذلك بتاريخ شهر ربيع الآخر من شهور سنة ستة وثلاثين وثمانماية"[7].

وهناك من يقول أن اسم الزوجة خديجة خاتون، وان زوجها هو الأمير محمد بن القادر. وأنها أسست هذه المدرسة أثناء ذهابها إلى مصر أو بعد عودتها منها. إذ أن زوجها كان قد أرسلها إلى الملك الأشرف برسباي لتبرهن له عن خضوعه وتطلب منه الإفراج عن ولده الذي كان سجيناً في القاهرة[8].

- المدرسة الحسنية:

تقع هذه المدرسة بباب الناظر غربي الحرم فوق رباط البصير. واقفها هو الأمير حسين الكشكيلي ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف، وكان بناؤها سنة 873هـ/1433م[9].

- المدرسة العثمانية:

تقع هذه المدرسة بباب المتوضأ إلى الغرب من ساحة الحرم الشريف تجاه سبيل قايتباي، وقفتها امرأة من أكابر الروم اسمها أصفهان شاه خاتون بنت محمود العثمانية وتلقب بـ (خانوم)،وتم وقفها سنة840هـ/1436م، في عهد الأشرف برسباي، حيث أوقفت

1 نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام :الحموي، معجم البلدان،ج5،ص288
2العسلي، معاهد العلم، ص225، العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص394.
3الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 42، عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص395.
4عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص395.
5العسلي، معاهد العلم، ص262.
6المرجع السابق.
7عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص396.
8المرجع السابق.
9الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص43.

عليها أوقافاً كثيرة في القدس، وتولى التدريس فيها عدد من كبار العلماء، وقد اشترط في صك وقفها أن يتولى مشيختها أعلم أهل زمانه، وأما واقفة المدرسة فقد تم دفنها في التربة المجاورة لسور المسجد الأقصى[1].

- المدرسة الجوهرية:

تقع هذه المدرسة بباب الحديد تجاه المدرسة الأرغونية على بعد بضعة أمتار من الباب المذكور إلى الغرب، وتنسب هذه المدرسة إلى واقفها صفي الدين القنقباء الخازندار، وذلك في سنة 844هـ/1440م في عهد الملك الظاهر جقمق، ومن الموقوفات الجارية على هذه المدرسة قرية زيتون ظاهر مدينة غزة، وكذلك قرية كوفخا من عمل غزة[2]، وكانت هذه المدرسة من المدارس المهمة، ومن الذين تولوا التدريس فيها كمال الدين محمد ابن أبي شرف القدسي (أستاذ مجير الدين الحنبلي، مؤلف كتاب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل).

- المدرسة المزهرية:

تقع هذه المدرسة بباب الحديد تجاه المدرسة الجوهرية، وأوقفها زين الدين أبي بكر بن محمد بن أحمد بن عثمان بن مزهر الأنصاري الدمشقي صاحب ديوان (الإنشاء بالديار المصرية)، بعضها راكب على ظهر المدرسة الأرغونية. ولها مجمع على أروقة المسجد وتم الانتهاء من بنائها سنة 885هـ/1480م[3].

- المدرسة الزمينية:

من المدارس الكائنة غربي الحرم، فوق الإيوان الذي بباب القطانين، بابها من داخل الحرم، أنشاها الخودجكي الشمسي محمد بن الزمرد خان في سنة 886هـ/1481م[4].

- المدرسة القرقشندية:

تقع قبالة بركة بني إسرائيل الواقعة شمال الحرم الشريف وهي لصيقة بباب المسجد، وفيها قبر الشيخ القرقشندي[5]. هذا ما نعرفه عن هذه المدرسة، ولم يذكرها مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

- المدرسة الأشرفية:

تقع هذه المدرسة داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة[6]. ومن اسمائها السلطانية، حيث بناها في الأصل الأمير حسن الظاهري باسم الملك الظاهر خوشقدم سنة 875هـ/ 1470م، وكانت يومئذ تدعى السلطانية. ولما توفي الملك الظاهر ولم يكن بناؤها قديم، رجا الأمير حسن الملك الأشرف قايتباي أن يتقبلها، فقبلها منه ونسبت إليه فسماها الأشرفية. ورتب لها مشايخ وفقهاء ومدرسين يدّرسون التعاليم الصوفية[7].

لهذه المدرسة شهرة خاصة بين مدارس القدس لكونها أفخم مدارس القدس بناءً، فقد وصفها مجير الدين الحنبلي بقوله "كانوا يقولون قديماً مسجد بيت المقدس به جوهرتان هما قبة الجامع الأقصى، وقبة الصخرة الشريفة، فقلت وهذه المدرسة صارت جوهرة ثالثة فإنها من العجائب في حسن المنظر ولطف الهيئة"[8].

اهتم السلطان الأشرف بمشيخة مدرسته، فكان يتولى توظيفهم بنفسه، فكلف محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي كمال الدين أبو المعالي المقدسي المصري الشافعي الشهير بابن عوجان المتوفى عام 906هـ/1500م وهو شيخ مجير الدين الحنبلي، الذي تحدث عن ذلك التكليف قائلاً "برز أمر السلطان باستقرار شيخ الإسلام الكحالي فيها، وطلبه إلى حضرته وشافهه بالولاية وسأله في القبول فأجاب لذلك. وحضر إلى القدس الشريف هو ومن معه من أركان الدولة الشريفة وباشرها. وحصل للمدرسة المشار إليها

1الحنبلي، الأنس الجليل،ج2، ص36، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص244، العسلي، معاهد العلم، ص177، عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص397

2ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص485.

3الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص37، العسلي، معاهد العلم، ص193، عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص399.

4عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص399.

5عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص380-382.

6الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص46.

7عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص400.

8الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص380-382.

وللأرض المقدسة بل ولسائر مملكة الإسلام الجمال والهيبة والوقار بقدومه وانتظم أمر الفقهاء وحكام الشريعة المطهرة بوجوده وبركة علومه"[1].

كانت أوقاف هذه المدرسة كبيرة تماثل المدرسة الصلاحية والتنكزية، فقد أوقف عليها السلطان قايتباي ثماني وعشرون قرية تابعة لغزة، وقريتين للرملة، وقرية للقدس، وثلاث للخليل، وغيرها من المزارع والبساتين، والأفران والحمامات والدكاكين[2].

وقد أورد كامل العسلي وقفية ببيان وظائف المدرسة ومرتب كل منهم بالدراهم كل شهر، وعلى رأس الموظفين الناظر، وشيخ المدرسة، والمتصوفين، والطلاب، وقارئ المصحف، والبواب، والفراش، والوقاد، والمباشر، والشاد، والجابي[3].

احتوت المدرسة الأشرفية على خزائن للكتب (مكتبات) وقد كان بالحائط الشمالي للمدرسة ثلاث خزائن للكتب، يقوم على هذه الخزائن موظف خاص وهو أمين المكتبة ويدعى خادم الربعة الشريفة، وكان هناك وظيفة باسم خادم المصحف، ووظيفة باسم مفرق الربعة الشريفة، وجاء من جملة من أوقفوا كتباً على السلطان قاتباي الذي أوقف عليها مصحفاً شريفاً[4].

الخاتمة:

ورث المماليك أملاك الدولة الأيوبية عام 651هـ/1253م في بلاد الشام، فقسموها إدارياً إلى نيابات ومنها نيابة بيت المقدس، ويبدو الاهتمام المملوكي الملحوظ بمدينة القدس بجعل القدس والمناطق التابعة لها إحدى نياباتهم المستقلة. وجعلوا القدس مركز حكم النيابة، وكان المماليك يعيّنون لنيابة القدس كبار الأمراء والنواب، حتى يتمكن نائبها بما اجتمع لديه من قوات من رد الخطر ودرء أطماع تحالف الصليبيين والتتار في مدينة القدس الأمر الذي رفع من مكانتها الروحية والدينية.

ازدهر العلم والتعليم في مدينة القدس زمن المماليك، فماثل التألق الديني والثقافي والفكري جانب وجهها الديني، وتمثل الازدهار الثقافي في مدينة القدس في العهد المملوكي بتأسيس الكثير من المؤسسات العلمية والأدبية والتي تنوعت بين المدارس والمساجد والمكتبات والرباطات والخوانق والزوايا.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الوردي، الشيخ زين الدين عمر (ت749هـ/1331م)، تاريخ ابن الوردي، ج2، طبع النجف، 1969.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت874هـ/1470م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج1، تحقيق أحمد سيف نجاتي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف(ت874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج10، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963.
- ابن حجر، الحافظ شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت528هـ/1133م): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 6ج، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- ابن حجر، انباء الغمر بأبناء العمر، 4ج، تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة، 1971.
- ابن كثير: إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1343م)، البداية والنهاية، 14ج، ط2، مكتبة المعارف، بيروت، 1977.
- أبي الفداء، الملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن أيوب (ت732هـ/1331م)، تقويم البلدان، حققه م.رينود، والبارون ماك كوكين دي سلان، باريس، المطبعة الملكية، 1907.
- العيني، السيف الهندي في سيطرة الملك المؤيد (شيخ المحمودي)، القاهرة، 1967.
- الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط (1253–1516م)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976.
- البغدادي، اسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباباني (ت1339هـ/1920م)، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون،ج1، القاهرة، 1945.

1الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص377.
2العسلي، معاهد العلم،ص161.
3المرجع السابق، ص161.
4المرجع السابق، ص168.

- ابن العماد، الحنبلي عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي (ت1189هـ/1775م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج7، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق/ بيروت، ط1، 1406هـ/ 1986 م.
- الحنبلي، مجير الدين عبد الرحمن (ت927هـ/1521م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، 2ج، مكتبة المحتسب، عمان/الأردن، 1973.
- الخالدي، أحمد سامح، المعاهد المصرية في بيت المقدس، الطبعة العصرية، القدس، 1946.
- الخالدي، أحمد سامح، أهل العلم بين مصر وفلسطين، القدس، 1947.
- الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، 11 جزء، ط4، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1988.
- دراج، احمد، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري– الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961.
- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية،، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1967.
- زيادة، نقولا، لمحات من تاريخ العرب، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1961.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت912هـ/1496م)، الضوء اللامع لأصل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- شهاب، علي منصور نصر، الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري (في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر، حوليات الاداب والعلوم الاجتماعية، الكويت الحولية 22، الرسالة 169، 2001.
- شهاب، علي منصور نصر، الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري (في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت الحولية 22، الرسالة 169، 2001.
- العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ط7، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007.
- عاشور، سعيد، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، بيروت، 2003.
- عثامنة، خليل، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 2006.
- العزة، رئيسة عبد الفتاح، نابلس في العصر المملوكي، ط1، دار الفاروق، نابلس، 1999.
- علي، السيد علي، أضواء على عروبة القدس، مجلة التربية، قطر، ع136، آذار 2001.
- علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، 1986.
- علي، فؤاد حسنين، فلسطين عربية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973.
- غوانمة، يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان / الأردن، 1987.
- القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت:821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، 14ج، القاهرة، د.ت.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج2، مكتبة المثنى، بيروت، 1957.
- كرد، محمد بن عبد الرزاق بن محمد علي (ت1372هـ/1953م)، خطط الشام، ج6، ط3، مكتبة نوري، دمشق، 1403هـ/1983م.
- كفافي، زيدان وآخرون، القدس عبر العصور، جامعة اليرموك، اربد، 2001.
- الكيالي، عبد الوهاب موسوعة السياسة، ط2،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990.
- محاسنة، محمد حسين وآخرون، تاريخ مدينة القدس، ط1، دار حنين، عمان،، 2003م.
- مراد، محمد مروان، ازدهار الحركة الفكرية في القدس في عهد المماليك، مجلة التراث العربي، سوريا، مجلد 29، ع113، آذار 2009.
- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت845هـ/1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1971م دار الكتب القاهرة 1972م.

- النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (927هـ/1521م)، الدارس في تاريخ المدارس، المجلد الأول تحقيق د. جعفر الحسني، والمجلد الثاني تحقيق د.صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1981.
- نورثروب، ليندا، الحياة في القدس في عهد المماليك كما تصورها وثائق الحرم الشريف، بحث ضمن كتاب (الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى)، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1994.